مكتبة الأسرة ١٩٩٨



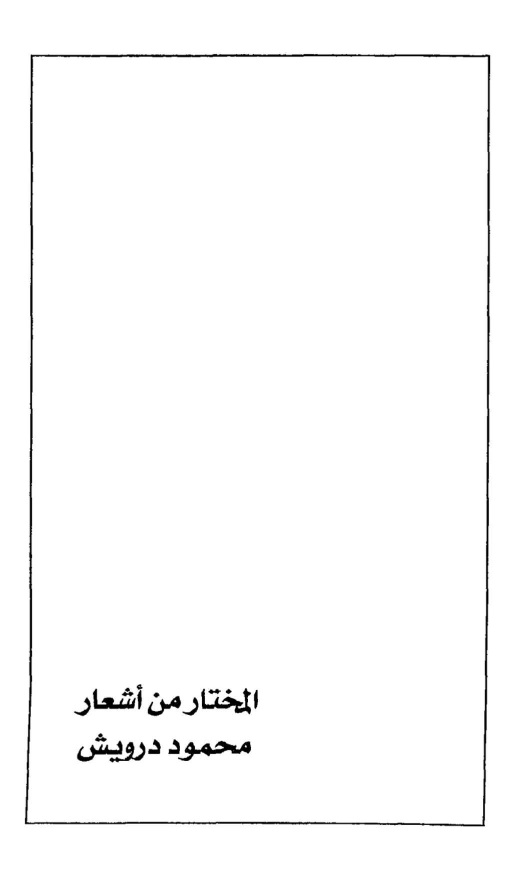
مهرجان القراءة للجميع





المختار من شعر

محمود درويش

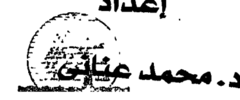


المختار من أشعار
محمود درويش

المختار من أشعار

محمود درويش

إعداد



د. محمد عناني



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الروائع)

المختار من أشعار
محمود درويش

الغلاف:
للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة

ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

تصديـــر

هذه مجـموعة مـختارة من قصـائد الشاعر الكبـير محـمود درويش روعى فى انتقـائها تمثيـل شتى المحاور التى يدور حـولها شعره ، وكذلك شتى الاتجاهات الفنية التى يعتبر رائدًا لها ، فهو من كبار المجددين فى حركة الشعـر العربى المعاصر ، وهو يتميز بالجمع بين ما يسمى بصوت الشاعـر الفرد ، وصوت الجماعة أو الصـوت الذى يمثل ضمـير أمتـه العربيـة ، وإذا كان الصـوتان يتلازمان فى معظم القـصائد ، فإنهما أحيانًا مـا يصطدمان لتوليد ما يسـمى بالحوار الدرامى الداخلى الذى يقرب بين الشـعر الذى يعتـبر « غنائـيًا » أو مفرد الصـوت وبين الشعـر « الدرامى » ذى الأصوات المتعددة .

إن مكتبـة الأسرة يسعدها أن تتـيح للقارئ العربى فى مـصر هذه النماذج المتميزة من شعر ذلك الشاعر المبدع ، وتأمل فى أن تحفزه المختارات على قراءة سائر أعـمال الشاعر الذى يتسم بغزارة الإنتاج والتنوع الشديد ،

مكتبة الأسرة

١ إلى القارئ

الزنبقاتُ السودُ في قلبي

وفي شَفَتي . . . اللهبْ

من أي غابٍ جئتِني

يا كلَّ صلبانِ الغضبْ ؟

بايعتُ أحزاني . .

وصافحتُ التشردَ والسّغَبْ

غضبٌ يدي . .

غضبٌ فمي . .

ودماءُ أوردتي عصيرٌ من غضبْ !

يا قارئي !

لا ترجُ مني الهمسَ !

لا ترجُ الطربْ

هذا عذابي . .

ضربةٌ في الرمل طائشةٌ

وأخرى في السُّحُبْ !

حسبي بأني غاضبٌ

والنارُ أولُها غَضَبْ !

* * *

٢ ولاء

حملتُ صوتكَ في قلبي وأوردتي

فما عليك إذا فارقتَ معركتي

أطعمتُ للريح أبياتي وزخرفها

إن لم تكن كسيوف النار .. قافيتي !

آمنت بالحرفِ .. إما ميتًا عَدَمًا

أو ناصبًا لعدوّي حبلَ مشنقةِ

آمنت بالحرف نارًا .. لا يضير إذا

كنتُ الرمادَ أنا .. أو كان طاغيتي !

فإن سقطتُ .. وكفي رافع علمي

سيكتبُ الناس فوق القبر :

« لم يَمُتِ »

* * *

٣ بطاقة هوية

سَجِّلْ !

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألفْ

وأطفالي ثمانيةٌ

وتاسِعُهم . . . سيأتي بعد صيفْ !

*

سجل !

أنا عربي

وأعمل مع رفاق الكدح في محجرْ

وأطفالي ثمانيةٌ

أسلُّ لهم رغيفَ الخبزِ ،

والأثوابَ والدفترْ

من الصخرِ . .

ولا أتوسَّلُ الصدَقاتِ من بابِكْ
ولا أصغرْ
أمام بلاط أعتابك
فهل تغضبْ ؟

*

سجل !
أنا عربي
أنا إسمٌ بلا لَقَبِ
صَبُورٌ في بلادٍ كُلُّ ما فيها
يعيش بفَوْرةِ الغضب
جذوري . .
قبل ميلاد الزمان رستْ
وقبل تفتُّحِ الحقبِ
وقبل السرو والزيتونْ
. . وقبل ترعرع العشبِ
أبي . . . من أسرة المحراث

لا من سادةٍ نُجُبِ
وجدي كان فلاحًا
بلا حسبٍ . . ولا نسبِ !
يُعَلِّمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتبِ
وبيتي ، كوخُ ناطورٍ
من الأعواد والقصبِ
فهل تُرضيك منزلتي ؟
أنا إسمٌ بلا لقبِ !

*

سجل !
أنا عربي
ولون الشعر فحميٌّ
ولون العين بنيٌّ
وميزاتي :
على رأسي عقالٌ فوق كوفيَّةْ
وكفي صلبةٌ كالصخر . . .

تخمشُ من يلامسها

وعنواني :

أنا من قريةٍ عزلاء . . . منسيَّةْ

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها . . . في الحقل والمحجرْ

فهل تغضب ؟

*

سجل

أنا عربي

سلبتُ كروم أجدادي

وأرضًا كنتُ أفلحها

أنا وجميع أولادي

ولم تترك لنا . . ولكل أحفادي

سوى هذي الصخور . .

فهل ستأخذُها

حكومتكم . . . كما قيلا !؟

إذن !

سجل . . . برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكرهُ الناسَ

ولا أسطو على أحد

ولكني . . . إذا ما جعتُ

آكلُ لحم مغتصبي

حذارِ . . . حذارِ . . . من جوعي

ومن غضبي !!



٤ أبي

غَضَّ طرفًا عن القمرْ

وانحنى يحضن التراب

وصلّى ..

لسماء بلا مطر ،

ونهاني عن السفر !

أشعل البرقُ أوديهْ

كان فيها أبي

يربي الحجارا

من قديم .. ويخلق الأشجارا

جلدُهُ ينزفُ الندى

يدهُ تورقُ الشجْر

فبكى الأفق أغنيهْ :

- كان أوديس فارسًا . .

كان في البيت أرغفهْ

ونبيد ، وأغطيه

وخيول ، وأحذيهْ

وأبي قال مرة

حين صلّى على حجرْ :

غُضَّ طرفًا عن القمر

واحذر البحر . . والسفر !

يوم كان الإله يجلد عبدَهْ

قلت : يا ناس ! نكفرُ ؟

فروى لي أبي . . وطأطأ زنده :

في حوار مع العذاب

كان أيوب يشكرُ

خالق الدود . . والسحاب !

خُلق الجرحُ لي أنا

لا لميْت . . ولا صنمْ

فدع الجرح والألم

واعِنّي على الندم !

مرَّ في الأفق كوكبُ

نازلاً . . نازلاً

وكان قميصي

بين نار ، وبين ريحْ

وعيوني تفكّرُ

برسوم على التراب

وأبي قال مرة :

الذي ما له وطن

ما له في الثرى ضريح

. . ونهاني عن السفر !



٥ الجرح القديم

واقفٌ تحت الشبابيك ،

على الشارع واقفْ

درجات السلّم المهجور لا تعرف خطوي

لا ولا الشبّاك عارفْ .

من يد النخلة أصطادُ سحابه

عندما تسقط في حلقي ذبابه

وعلى أنقاض إنسانيتي

تعبرُ الشمسُ وأقدامُ العواصفْ

واقفٌ تحت الشبابيك العتيقه

من يدي يهرب دُوريٌّ وأزهار حديقه

[illegible] : كم من العمر مضى حتى تلاقى

كلُّ هذا اللون والموت ، تلاقى بدقيقه ؟

وأنا أجتازُ سردابًا من النسيان ،

والفلفل ، والصوت النحاسي

من يدي يهرب دوريٌّ ..

وفي عيني ينوب الصمت عن قول الحقيقه !

عندما تنفجر الريح بجلدي

وتكفُّ الشمسُ عن طهو النعاسْ

وأسمّي كل شيء باسمه ،

عندها أبتاع مفتاحًا وشباكًا جديدًا

بأناشيد الحماس !

– أيها القلبُ الذي يُحرم من شمس النهار

ومن الأزهار والعيد ، كَفانا !

علمونا أن نصون الحب بالكره !

وأن نكسو ندى الورد .. غبار !

– أيها الصوتُ الذي رفرف في لحمي

عصافير لهبْ ،

علّمونا أن نُغني ، ونحب

كلَّ ما يطلعه الحقلُ من العُشْب ،

من النمل ، وما يتركه الصيفُ على أطلال دارِ

علّمونا أن نُغني ، ونداري

حبَّنا الوحشيَّ ، كي لا

يصبح الترنيم بالحب مملاً !

عندما تنفجر الريحُ بجلدي

سأسمي كلَّ شيء باسمه

وأدق الحزن والليل بقيدي

يا شبابيكي القديمه . . !

* * *

٦ أغنية حب على الصليب

مدينةَ كل الجروح الصغيره

ألا تخمدين يديَّ ؟

ألا تبعثين غزالاً إليَّ ؟

وعن جبهتي تنفضين الدخان . . وعن رئتيَّ ؟!

حنيني إليك . . اغترابْ

ولقياك . . منفى !

أدقُّ على كل باب . .

أُنادي ، وأسأل ، كيفَ

تصير النجومُ تراب ؟

أحبكِ كوني صليبي

وكوني ، كما شئتِ ، بُرْجَ حمامْ

إذا ذوبتني يداك
ملأت الصحارى غمام

لحبك يا كلّ حبي ، مذاقُ الزبيبْ
وطعم الدمِ
على جبهتي قمر لا يغيب
ونارٌ وقيثارة في فمي !

إذا متُّ حباً فلا تدفنيني
وخلي ضريحي رموش الرياح
لأزرع صوتك فى كل طين
وأشهر سيفك في كل ساح

أحبك ، كوني صليبي
وما شئت كوني
وكالشمس ذوبي
بقلبي .. ولا ترحميني ..

٧ خارج من الأسطورة

إنني أنهضُ من قاع الأساطير
وأصطاد على كل السطوح النائمه
خطوات الأهل والأحباب . . أصطاد نجومي القائمة
إنني أمشي على مهلي ، وقلبي مثل نصف البرتقالهْ
وأنا أعجب للقلب الذي يحمل حاره
وجبالاً ، كيف لا يسأم حاله !
وأنا أمشي على مهلي . . وعيني تقرأ الأسماءَ
والغيم على كل الحجاره
وعلى جيدك يا ذات العيون السود
يا سيفي المذهَّبْ
ها أنا أنهض من قاع الأساطير . . وألعبْ
مثل دوريٍّ على الأرض . . . وأشرب
من سحاب عالق في ذيل زيتون ونخلِ
ها أنا أشتمُّ أحبابي وأهلي

فيك ، يا ذات العيون السود . . . يا ثوبي المقصّب
لم تزل كفّاك تليّن من الخضرة ، والقمح المذهّبْ
وعلى عينيك ما زال بساطُ الصحو
بالوشم الحريريِّ . . مكوكب !

إنني أقرأ في عينيك ميلاد النهارْ
إنني أقرأ أسرار العواصف
لم تشيخي . . لم تخوني . . لم تموتي
إنما غيَّرتِ ألوان المعاطف
عندما انهار الأحبّاءُ الكبار
وامتشقنا ، لملاقاة البنادق
باقة من أغنيات وزنابق !
آه . . يا ذات العيون السود ، والوجه المعفَّرْ
يشرب الشارعُ والملحُ دمي
كلما مرت على باليَ أقمارُ الطفوله
خلف أسوارك يا سجن المواويل الطويلهْ
خلف أسوارك ، ربَّيت عصافيري
ونحلي ، ونبيذي ، وخميلهْ

٨ اعتذار

حلمتُ بعرس الطفولهْ

بعينين واسعتين حلمت

حلمتُ بذات الجديلهْ

حلمتُ بزيتونةٍ لا تُباع

ببعض قروشٍ قليلهْ

حلمتُ بأسوار تاريخكِ المستحيلهْ

حلمتُ برائحة اللوز

تشعل حزن الليالي الطويلهْ

بأهلي حلمت ..

بساعد أختي

سيلتفُّ حولي وِشاحَ بطولهْ

حلمت بليلة صيف

بسلّة تينِ

حلمتُ كثيراً

كثيراً حلمتُ . .

إذن سامحيني !!.



٩ المستحيل

أموت اشتياقًا

أموت احتراقًا

وشنقًا أموت

وذبحًا أموت

ولكنني لا أقول :

مضى حبنا ، وانقضى

حبنا لايموت



١٠ الورد والقاموس

وليكن .

لابد لي . .

لا بد للشاعر من نخب جديدْ

وأناشيد جديده

إنني أحمل مفتاح الأساطير وآثار العبيد

وأنا أجتاز سردابًا من النسيان

والفلفل ، والصيف القديم

وأرى التاريخ في هيئة شيخ ،

يلعب النرد ويمتصُّ النجوم

وليكن لا بدَّ لي أن أرفض الموت ،

وإن كانت أساطيري تموت

إنني أبحث في الأنقاض عن ضوء ، وعن شعر جديد

آه . . هل أدركت قبل اليوم

أن الحرف في القاموس ، يا حبي ، بليد

كيف تحيا كلُّ هذي الكلمات !

كيف تنمو ؟ . . كيف تكبر ؟

نحن ما زلنا نغذيها دموع الذكريات

واستعارات . . وسُكَّر !

وليكن . .

لا بد لي أن أرفض الورد الذي

يأتي من القاموس ، أو ديوان شعر

ينبت الورد على ساعد فلاّح ، وفي قبضة عامل

ينبت الورد على جرح مقاتل

وعلى جبهة صخر . .

* * *

١١ وعود من العاصفة

وليكن . . .

لا بدَّ لي أن أرفض الموت

وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفهْ

وأعرّي شجر الزيتون من كل الغصون الزائفهْ

فإذا كنت أُغني للفرحْ

خلف أجفان العيون الخائفهْ

فلأنَّ العاصفة

وعدتني بنبيذ . . وبأنخاب جديده

وبأقواس قزح

ولأن العاصفهْ

كنَست صوت العصافير البليده

والغصون المستعاره

عن جذوع الشجرات الواقفهْ .

وليكن ..

لا بدَّ لي أن أتباهي ، بك ، يا جرح المدينهْ

أنت يا لوحة برق في ليالينا الحزينهْ

يعبس الشارع في وجهي

فتحميني من الظل ونظرات الضغينهْ

سأغني للفرح

خلف أجفان العيون الخائفهْ

منذ هبت ، في بلادي ، العاصفهْ

وعدتني بنبيذ ، وبأقواس قزح



١٢ أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر

هل لكل الناس ، في كل مكانِ

أذرع تطلع خبزًا وأماني

ونشيدًا وطنيًا ؟

فلماذا يا أبي نأكل غُصْنَ السنديانِ

ونغني ، خلسة ، شعرًا شجيًا ؟

يا أبي ! نحن بخير وأمانِ

بين أحضان الصليب الأحمرِ !

*

عندما تُفرغ أكياسُ الطحينِ

يصبح البدرُ رغيفًا في عيوني

فلماذا يا أبي ، بعتَ زغاريدي وديني

بفُتاتٍ وبجبنٍ أصفرِ

في حوانيت الصليب الأحمرِ ؟

*

يا أبي ! هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر ؟

وهل الأشجار تغنينا عن النار ، وهل ضوء القمر

سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالي

إنني أسألُ مليون سؤال

وبعينيك أرى صمتَ الحجر

فأجبني ، يا أبي ، أنت أبي

أم تراني صرت إبنًا للصليب الأحمرِ ؟!

*

يا أبي ! هل تنبت الأزهارُ في ظل الصليبْ ؟

هل يغني عندليبْ ؟

فلماذا نسفوا بيتي الصغيرا

ولماذا ، يا أبي ، تحلم بالشمس إذا جاء المغيبْ ؟

وتناديني ، تناديني كثيراً

وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيبْ

في دكاكين الصليب الأحمرِ

*

حرموني من أراجيح النهار

عجنوا بالوحل خبزي .. ورموشي بالغبار

أخذوا مني حصاني الخشبي

جعلوني أحمل الأثقال عن ظهر أبي

جعلوني أحمل الليلةَ عام

آه من فجّرني في لحظةٍ جدول نار ؟

آه ، من يسلبني طبع الحمام

تحت أعلام الصليب الأحمرِ !

ملاحظة على الأغنية

أخذوا منك الحصار الخشبي

أخذوا ، لا بأس ، ظلٌّ الكوكبِ

يا صبي !

يا زهرة البركان ، يا نبض يدي

إنني أبصر في عينيك ميلاد الغدِ

وجواداً غاص في لحم أبي

نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيّا

قل مع القائل : . . . لم أسألك عبثًا هينًا

يا إلهي ! أعطني ظهرًا قويًا . . !

أخذوا بابًا . . ليعطوك رياح

فتحوا جرحًا ليعطوك صباح

هدموا بيتًا لكي تبني وطن

حَسَنٌ هذا . . حسن

نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيًا

قل مع القائل : . . . لم أسألك عبثًا هنيًا

يا إلهي ! أعطني ظهرًا قويًا . . !

* * *

١٣ أنا آتٍ إلى ظل عينيك

أنا آتٍ إلى ظلٍّ عينيك . . آتِ

من خيام الزمان البعيد ، ومن لمعان السلاسلْ

أنتِ كل النساء اللواتي

مات أزواجهن . وكل الثواكل

أنتِ

أنتِ العيون التي فرّ منها الصباح

حين صارت أغاني البلابل

ورقًا يابسًا في مهبٍّ الرياح !

أنا آتٍ إلى ظلٍّ عينيك . . آتِ

من جلود تحاك السجاجيد منها . . . ومن حدقاتِ

عُلّقَت فوق جيد الأميرة عقدًا .

أنتِ بيتي ومنفاي . . أنتِ

أنت أرضي التي دمَّرتني

أنتَ أرضي التي حوَّلتني سماء . .

وأنتِ . .

كل ما قيل عنك ارتجال وكذبهْ !

لست سمراءَ ،

لست غزالاً ،

ولست الندى والنبيذ ،

ولستِ

كوكبًا طالعًا من كتاب الأغاني القديمهْ

عندما ارتجَّ صوت المغنين . . . كنتِ

لغة الدم حين تصير الشوارع غابهْ

وتصير العيون زجاجًا

ويصير الحنين جريمهْ .

لا تموتي على شُرُفات الكآبهْ

كُلُّ لون على شفتيك احتفالْ

يا لليالي التي انصرمت . . . بالنهار الذي سوف يأتي

أولَ سطر بسِفْر الجبال

الجبال التي أصبحت سُلَّمًا نحو موتي !

والسياطُ التي احترقت فوق ظهري وظهرك

سوف تبقى سؤال :

أين سمسار كل المنابر ؟

أين الذي كان . . كان يلوك حجارة قبري وقبرك .

ما الذي يجعل الكلمات عرايا ؟

ما الذي يجعل الريح شوكًا ، وفحم الليالي مرايا ؟

ما الذي ينزع الجلد عني ، ويثقب عظمي ؟

ما الذي يجعل القلب مثل القذيفهْ ؟

وضلوعَ المغنّين ساريةً للبيارقْ ؟

ما الذي يفرش النار تحت سرير الخليفهْ ؟

ما الذي يجعل الشفتين صواعق ؟

أخته . . أمه . . حبه

لعبةٌ بين أيدي الجنود

وبين سماسرة الخُطب الحاميهْ

فيعض القيود . . ويأتي

إلى الموت . . يأتي

إلى ظلِّ عينيك . . يأتي !

أنا آتٍ إلى ظلِّ عينيك . . آتٍ

من كتاب الكلام المحنط فوق الشفاه المعادهْ

أكلتْ فرسي ، في الطريق ، جرادهْ

مزَّقتْ جبهتي ، في الطريق ، سحابهْ

صلبتني على الطريق ذبابهْ !

فاغفري لي . .

كل هذا الهوان ، اغفري لي

انتمائي إلى هامش يحترق !

واغفري لي قرابهْ

ربطتني بزوبعة في كؤوس الورق

واجعليني شهيد الدفاع

عن العشب

والحب

والسخريهْ

عن غبار الشوارع أو عن غبار الشجر

عن عيون النساء ، جميع النساء

وعن حركات الحجر .

واجعليني أُحب الصليب الذي لا يُحبْ

واجعليني بريقًا صغيراً بعينيك

حين ينام اللهب ! .

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك .. آتٍ

مثل نسر يبيعون ريش جناحهْ

ويبيعون نار جراحهْ

بقناع . وباعوا الوطنْ

بعصا يكسرون بها كلمات المغني .

وقالوا : اذبحوا واذبحوا ..

ثم قالوا : هي الحرب كرٌّ وفرٌّ ..

ثم فروا ..

وفروا ..

وفروا . .

وتباهوا . . تباهوا . .

أوسعوهم هجاء وشتمًا ، وأودوا بكل الوطن ! .

حين كانت يداي السياجَ ، وكنتِ حديقهْ

لعبوا النرد تحت ظلال النعاسِ

حين كانت سياط جهنم تشرب جلدي

شربوا الخمر نخب انتصار الكراسي ! .

حين مرت طوابير فرسانهم في المرايا

ساومونا على بيت شِعر ، وقالوا :

ألهبوا الخيل . كل السبايا

أقبلتْ أقبلتْ من خيام المنافي

كذبوا ! لم يكن جرحنا غير منبرْ

للذي باعه . . باع حطين . . باع السيوف ليبني منبر

نحو مجد الكراسي ! . .

أنا آتٍ إلى ظلِّ عينيك . . آتِ

من غبار الأكاذيب . . آتِ

منْ قشور الأساطير آتِ

أنت لي . . أنت حزني وأنتِ الفرح

أنتِ جرحي وقوس قزح

أنتِ قيدي وحريّتي

أنتِ طيني وأسطورتي

أنتِ لي . . أنت لي . . بجراحكْ

كل جرح حديقهْ !.

أنت لي . . أنت لي . . بنواحك

كل صوت حقيقهْ .

أنت شمسي التي تنطفىء

أنتِ ليلي الذي يشتعل

أنت موتي ، وأنت حياتي

وسآتي إلى ظلّ عينيك . . آتِ

وردةً أزهرت في شفاه الصواعق

قبلةً أينعت في دخان الحرائق

فاذكريني . . إذا ما رسمت القمر

فوق وجهي ، وفوق جذوع الشجر
مثلما تذكرين المطر
وكما تذكرين الحصى والحديقهْ
واذكريني ،
كما تذكرين العناوين في فهرس الشهداء
أنا صادقتُ أحذْية الصِّبية الضعفاء
أنا قاومتُ كُل عروش القياصرة الأقوياء
لم أبع مهرتي في مزاد الشعار المساوم
لم أذق خبز نائم
لم أساوم
لم أدق الطبول لعرس الجماجم
وأنا ضائع فيك بين المراثي وبين الملاحم
بين شمسي وبين الدم المستباح
جئت عينيك حين تجمَّد ظلي
والأغاني اشتهت قائليها ! . .

* * *

١٤ احمد الزعتر

ليدين من حَجَر وزعترْ
هٰذا النشيدُ . . لأحمدَ المنسيِّ بين فراشتين
مَضَت الغيومُ وشرَّدتني
ورمتْ معاطِفها الجبالُ وخبأتني

. . نازلاً من نخلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنتُ وحدي
ثم وحدي . . .
آه يا وحدي ؟ وأحمدْ
كان اغترابَ البحر بين رصاصتين
مُخيّمًا ينمو ، ويُنجب زعترًا ومقاتلين
وساعدًا يشتدُّ في النسيان
ذاكرةً تجيء من القطارات التي تمضي

وأرصفةٌ بلا مستقبلين وياسمين
كان اكتشافَ الذات في العرباتِ
أو في المشهد البحريِّ
في ليل الزنازين الشقيقةِ
في العلاقات السريعة
والسؤال عن الحقيقهْ
في كلِّ شيء كان أحمدُ يلتقي بنقيضه
عشرين عامًا كان يسألْ
عشرين عامًا كان يرحلْ
عشرين عامًا لم تلده أمُّهُ إلاَّ دقائقَ في
إناء الموز
وانسَحَبَتْ .
يريد هويةً فيصاب بالبركانِ ،
سافرتِ الغيومُ وشرَّدتني
ورَمَتْ معاطفها الجبالُ وخبَّأتني

أنا أحمد العربيُّ - قالَ
أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ

وجدتُ نفسي قرب نفسي
فابتعدتُ عن الندى والمشهد البحريّ
تل الزعتر الخيمهْ
وأنا البلاد وقد أتَتْ
وتقمَّصتني
وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد
وجدتُ نفسي ملء نفسي . . .

راح أحمدُ يلتقي بضلوعه ويديه
كان الخطوةَ – النجمهْ
ومن المحيط إلى الخليج ، من الخليج إلى المحيط
كانوا يُعدّون الرماحَ
وأحمدُ العربيُّ يصعد كي يري حيفا
ويقفزَ .
أحمدُ الآن الرهينهْ
تركتْ شوارعَها المدينهْ
وأتتْ إليه
لتقتلهْ

ومن الخليج إلى المحيط ، من المحيط إلى الخليج
كانوا يُعدُّون الجنازةَ
وانتخاب المقصلهْ

أنا أحمدُ العربيُّ - فليأتِ الحصارْ
جسدي هو الأسوار - فليأت الحصار
وأنا حدود النار - فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدري بابُ كلِّ الناس - فليأت الحصار

لم تأتِ أغنيتي لترسم أحمدَ الكحليَّ في الخندقْ
الذكرياتُ وراء ظهري ، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولد الموزَّعُ بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلي
قاومْ
إنَّ التشابه للرمال . . . وأنتَ للأزرقْ

وأعُدُّ أضلاعي فيهرب من يدي بردى

وتتركني ضفاف النيل مبتعدا
وأبحثُ عن حدود أصابعي
فأرى العواصمَ كلّها زَبَدَا . . .
وأحمدُ يفرُكُ الساعاتِ في الخندقْ
لم تأتِ أُغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق
هو أحمد الكَوْنيُّ في هذا الصفيح الضيِّقِ
المتمزِّق الحالمْ
وهو الرصاص البرتقاليُّ . . البنفسَجَةُ الرصاصيَّةْ
وهو اندلاعُ ظهيرة حاسمْ
في يوم حريَّةْ

يا أيها الولد المكرّس للندى
قاومْ !
يا أيها البلد - المسدَّس في دمي
قاومْ !
الآن أكمل فيك أُغنيتي
وأذهبُ في حصاركْ
والآن أكمل فيك أسئلتي

وأولد من غبارك

فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوبًا في انفجارك

. . . سائرًا بين التفاصيل اتكأتُ على مياهٍ

فانكسرتُ

أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبي

والتجأتُ إلى حصارٍ كي أحدِّد قامتي

يا أحمد العربيُّ ؟

لم يكذب عليَّ الحب . لكن كُلّما جاء المساء

امتصّني جَرَسٌ بعيدٌ

والتجأتُ إلى نزيفي كي أُحدِّد صورتي

يا أحمد العربيُّ .

لم أغسل دمي من خبز أعدائي

ولكن كُلّما مرَّت خُطَايَ على طريقٍ

فرَّتِ الطرقُ البعيدةُ والقريبةُ

كلّما آخيتُ عاصمةً رمَتني بالحقيبةِ

فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار

كمْ أمشي إلى حُلُمي فتسبقني الخناجرُ
آه من حلمي ومن روما !
جميلٌ أنت في المنفى
قتيلٌ أنت في روما
وحيفا من هنا بدأتْ
وأحمدُ سُلَّمُ الكرملْ
وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزلْ

لا تسرقوه من السنونو
لا تأخذوه من الندى
كتبت مراثيها العيونُ
وتركت قلبي للصدى

لا تسرقوه من الأبدْ
وتبعثروه على الصليب
فهو الخريطةُ والجسد
وهو اشتعال العندليب

لا تأخذوه من الحَمَامْ

لا ترسلوهُ إلى الوظيفهْ
لا ترسموا دمه وسام
فهو البنفسج في قذيفهْ

صاعدًا نحو التئام الحلم
تتَّخذُ التفاصيلُ الرديئةُ شكلَ كُمَّثرى
وتنفصل البلادُ عن المكاتبِ
والخيولُ عن الحقائبِ
للحصى عرقٌ أقبِّلُ صمتَ هذا الملح
أعطي خطبة الليمون لليمون
أوقدُ شمعتي من جرحيَ المفتوحِ للأزهار
والسمكِ المجفَّف
للحصى عَرَقٌ ومرآةٌ
وللحطّاب قلبُ يمامةٍ
أنساكِ أحيانًا لينساني رجالُ الأمنِ
يا امرأتي الجميلةَ تقطعين القلب والبَصَل
الطريَّ وتذهبين إلى البنفسج
فاذكريني قبل أن أنسى يديَّ

.. وصاعداً نحو التئام الحلمِ
تنكمش المقاعدُ تحت أشجاري وظلّكِ ...
يختفي المتسلّقون على جراحك كالذباب الموسميّ
ويختفي المتفرجون على جراحك
فاذكريني قبل أن أنسى يديَّ !
وللفراشات اجتهادي
والصخورُ رسائلي في الأرض
لا طروادة بيتي
ولا مسّادةٌ وقتي
وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادَرِ
من حصان ضاع في درب المطارِ
ومن هواء البحر أصعدُ
من شظايا أدْمَنَتْ جسدي
وأصعدُ من عيون القادمين إلى غروب السهلِ
أصعدُ من صناديق الخضارِ
وقوّةِ الأشياء أصعدُ
أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كل الأزقّة
ينشدون :

صامدون

وصامدون

وصامدون

كان المخيَّمُ جسمَ أحمدْ

كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ

كان الحجار ظلال أحمدْ

صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ فوق أفئدة الملايين

الأسيرهْ

صار الحصارُ هُجُومَ أحمدْ

والبحر طلقته الأخيرهْ !

يا خَصْرَ كلِّ الريح

يا أسبوع سُكَّرْ !

يا اسم العيون ويا رُخاميَّ الصدى

يا أحمد المولود من حجر وزعترْ

ستقول : لا

ستقول : لا

جلدي عباءةُ كلٍّ فلاح سيأتي من حقول التبغ
كي يلغي العواصمْ
وتقول : لا
جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفةِ
والتردد . والملاحمْ
نحو اقتحام المرحلهْ
وتقول : لا
ويدي تحياتُ الزهور وقنبلهْ
مرفوعة كالواجب اليومي ضدَّ المرحلهْ
وتقول : لا
يا أيها الجسد المُضرَّج بالسفوحِ
وبالشموس المقبلهْ
وتقول : لا
يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج
فوق المقصلهْ
وتقول : لا
وتقول : لا
وتقول : لا !
وتموت قرب دمي وتحيا في الطحين

ونزور صمتك حين تطلبنا يداكَ
وحين تشعلنا اليراعهْ
مشت الخيولُ على العصافير الصغيرةِ
فابتكرنا الياسمين
ليغيب وجهُ الموت عن كلماتنا
فاذهب بعيدًا في الغمام وفي الزراعهْ
لا وقت للمنفى وأغنيتي . . . :
سيجرفُنا زحامُ الموت فاذهب في الزحام
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

واذهبْ إلى دمك المهيَّأ لانتشارك
واذهب إلى دميَ الموحَّدِ في حصارِك
لا وقتَ للمنفى . . .
وللصُوَرِ الجميلةِ فوق جدران الشوارع والجنائز
والتمني
كتبتْ مراثيها الطيورُ وشرَّدتني
ورمتْ معاطفها الحقولُ وجمعتني
فاذهبْ بعيدًا في دمي ! واذهب بعيدًا في الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

يا أحمدُ اليوميّ !

يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء
يا اسم البرتقالهْ
يا أحمد العاديّ !
كيف مَحَوْتَ هذا الفارقَ اللفظيَّ بين الصخر والتفّاح
بين البندقية والغزالهْ !
لا وقت للمنفى وأغنيتي . .
سنذهب في الحصار
حتى نهايات العواصم
فاذهبْ عميقًا في دمي
اذهبْ براعمْ
واذهبْ عميقًا في دمي
اذهبْ خواتم
واذهبْ عميقًا في دمي
اذهب سلالم
يا أحمدُ العربيُّ . . قاومْ !
لا وقت للمنفى وأغنيتي . .
سنذهب في الحصار
حتى رصيف الخبز والأمواجِ
. .

تلك مساحتي ومساحة الوطن - المُلازِمْ
موتٌ أمام الحُلْم
أو حلم يموتُ على الشعار
فاذهب عميقًا في دمي واذهب عميقًا في الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

... ولَهُ انحناءاتُ الخريف
لَهُ وصايا البرتقال
لَهُ القصائد في النزيف
لَهُ تجاعيدُ الجبال
لَهُ الزفافُ
لَهُ المجلاّتُ المُلوَّنةُ
المراثي المطمئنةُ
ملصقات الحائط
العَلَمُ
التقدُّمُ
فرقةُ الإنشاد
مرسوم الحداد
وكل شيء كل شيء كل شيء

حين يعلن وجهه للذاهبين إلى ملامح وجههِ
يا أحمدُ المجهولُ !
كيف سكَنْتَنا عشرين عامًا واختفيتَ
وظَلَّ وجهُكَ غامضًا مثل الظهيرهْ
يا أحمد السريّ مثل النار والغابات
أشهرْ وجهك الشعبيَّ فينا
واقرأ وصيَّتكَ الأخيرهْ ؟
يا أيها المتفرّجون ! تناثروا في الصمت
وابتعدوا قليلاً عنه كي تجدوهُ فيكم
حنطةً ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلاً عنه كي يتلو وصيَّتَهُ
على الموتى إذا ماتوا
وكي يرمي ملامحَهُ
على الأحياء ان عاشوا !

أخي أحمد !
وأنتَ العبدُ والمعبود والمعبد
متى تشهدْ
متى تشهدْ
متى تشهدْ ؟

١٥ قصيدة الأرض

-١-

في شهر آذارَ ، في سَنَة الانتفاضةِ ، قالت لنا الأرض
أسرارَها الدمويَّةَ . في شهر آذارَ مَرَّتْ أمام
البنفسجِ والبندقية خمسُ بناتٍ . وقَفْنَ على باب
مدرسة ابتدائيَّةٍ ، واشتعلن مع الورد والزعترِ
البلديِّ . افتتحنَ نشيدَ التراب . دخلن العناقَ
النهائيَّ – آذارُ يأتي إلى الأرض من باطن الأرض
يأتي ، ومن رقصة الفتياتِ – البنفسجُ مال قليلاً
ليعبر صوتُ البنات . العصافيرُ مَدَّتْ مناقيرها
في اتجاه النشيد وقلبي .
أنا الأرضُ
والأرضُ أنتِ
خديجةُ ! لا تغلقي الباب

لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل .

وفي شهر آذار ، مَرَّتْ أمام البنفسج والبندقية خمسُ

بنات . سقطن على باب مدرسة ابتدائيَّةٍ . للطباشير

فوق الأصابع لونُ العصافير . في شهر آذار قالت

لنا الأرض أسرارها .

- 1 -

أسمّي التراب امتدادًا لروحي

أسمّي يديَّ رصيفَ الجروحِ

أسمّي الحصى أجنحةْ

أسمّي العصافير لوزًا وتين

أسمّي ضلوعي شجرْ

وأستلُّ من تينة الصدر غصنًا

وأقذفه كالحجرْ

وأنسف دبّابة الفاتحين .

- ٢ -

وفي شهر آذار ، قبل ثلاثين عامًا وخمس حروب ،

وُلدتُ على كومة من حشيش القبور المضيء .

أبي كان في قبضة الانجليز . وأمّي تربّي جديلتها

وامتدادي على العشبِ . كنتُ أحبُّ « جراح

الحبيب » وأجمعها في جيوبي ، فتذبل عند الظهيرة ،

مَرَّ الرصاصُ على قمري الليلكيِّ فلم ينكسرْ

غير أن الزمان يَمرُّ على قَمَري الليلكيِّ فيسقط في

القلب سهوًا . . .

وفي شهر آذار نمتدُّ في الأرضِ

في شهر آذار تنتشر الأرض فينا

مواعيدَ غامضةً

واحتفالاً بسيطًا

ونكتشف البحرَ تحت النوافذِ

والقمرَ الليلكيَّ على السرو

في شهر آذار ندخل أول سجن وندخل أول حُبٍّ ،

وتنهمرُ الذكرياتُ على قرية في السياج

وُلدنا هناك ولم نتجاوز ظلال السفرجلِ

كيف تفرّين من سُبُلي يا ظلال السفرجل ؟

في شهر آذار ندخل أول حُبّ

وندخل أول سجن

وتنبلج الذكرياتُ عشاء من اللغة العربية

قال ليَ الحبُّ يومًا : دخلتُ إلى الحلم وحدي فضعتُ

وضاعَ بيَ الحلمُ . قلتُ : تكاثر ! تَرَ النهر يمشي

إليك .

وفي شهر آذار تكتشف الأرض أنهارها

- 2 -

بلادي البعيدةَ عني . . . كقلبي !

بلادي القريبةَ مني . . . كسجني !

لماذا أُغنّي

مكانًا ، ووجهي مكانْ ؟

لماذا أُغني

لطفلٍ ينامُ على الزعفران

وفي طرف النوم خنجر

وأمّي تناولني

صدرها

وتموتُ أمامي

بنسمة عنبر ؟

- ٣ -

وفي شهر آذار تستيقظ الخيلُ

سيدتي الأرضَ !

أيُّ نشيد سيمشي على بطنكِ المتموِّج ، بعدي ؟

وأيُّ نشيد يلائمُ هذا الندى والبَخُورَ

كأنَّ الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطينَ في بدئها

المتواصل

هذا اخضرارُ المدى واحمرارُ الحجارةِ -

هذا نشيدي

وهذا خروجُ المسيح من الجرح والريح

أخضرَ مثل النبات يُغطّى مساميرَهُ وقيودي

وهذا نشيدي

وهذا صعود الفتى العربيِّ إلى الحلم والقدس . . .

في شهر آذار تستيقظ الخيلُ .

سيدتي الأرضَ !

والقممُ اللولبيّةُ تبسطها الخيلُ سجّادةً للصلاة السريعة

بين الرماح وبين دمي .

نصفَ دائرة ترجع الخيلُ قوسًا

ويلمع وجهي ووجهك حيفا وعُرسا

وفي شهر آذار ينخفض البحرُ عن أرضنا المستطيلة مثل

حصان على وترِ الجنسِ .

في شهر آذار ينتفض الجنسُ في شجر الساحل العربيّ .

وللموج أن يحبس الموجَ . . أن يتموَّجَ . . . أن

يتزوَّج . . . أو يتضرَّج بالقطن

أرجوكِ – سيدتي الأرضَ – أن تَسكنيني وأن تُسكنيني صهيلَكِ

أرجوكِ أن تدفنيني مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج والبندقيةِ

أرجوكِ – سيدتي الأرضَ – أن تُخْصبي عُمْرِيَ المتمايلَ بين سؤالين : كيف ؟ وأين ؟

وهذا ربيعي الطليعيُّ

هذا ربيعي النهائيُّ

في شهر آذار زوَّجت الأرض أشجارها .

- 3 -

كأني أعودُ إلى ما مضى

كأني أسيرُ أمامي

وبين البلاط وبين الرضا

أُعيد انسجامي .

أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ

وشهيدُ الخريطهْ

أنا زهرة المشمش العائليّهْ .

فيا أيها القابضون على طرف المستحيل

من البدء حتى الجليل

أعيدوا إليّ يديّ

أعيدوا إليّ الهويّهْ !

-٤-

وفي شهر آذار تأتي الظلال حريريةً والغزاةُ بدون ظلالٍ

وتأتي العصافيرُ غامضةً كاعتراف البنات

وواضحةً كالحقول

العصافيرُ ظلُّ الحقول على القلب والكلمات .

خديجةُ !

- أين حفيداتك الذاهبات إلى حبّهن الجديد ؟

- ذهبن ليقطفن بعض الحجارة -

قالت خديجةُ وهي تحثُّ الندى خلفهنّ .

وفي شهر آذار يمشي التراب دمًا طازجًا في الظهيرة . . .

خمسُ بنات يخبِّئنَ حقلاً من القمح تحت الضفيرة . .
يقرأن مطلع أنشودة عن دوالي الخليل . ويكتبن
خمس رسائل :

تحيا بلادي
من الصِّفْرِ حتى الجليل
ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة .
خديجةُ ! لا تغلقي الباب خلفك
لا تذهبي في السحاب
ستمطر هذا النهار
ستمطر هذا النهار رصاصًا
وفي شهر آذار ، في سنةِ الانتفاضة ، قالت لنا الأرض
أسرارها الدمويَّةَ : خمسُ بنات على باب مدرسة
ابتدائيَّةٍ يقتحمن جنود المظلات . يسطع بيت
من الشعر أخضرَ . . أخضرَ . خمسُ بنات على
باب مدرسة ابتدائية ينكسرن مرايا مرايا
البنات مرايا البلاد على القلبِ . . .

في شهر آذار أحرقت الأرضُ أزهارها .

- 4 -

أنا شاهدُ المذبحهْ

وشهيدُ الخريطهْ

أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ

رأيتُ الحصى أجنحهْ

رأيت الندى أسلحه

عندما أغلقوا باب قلبي عليّا

وأقاموا الحواجز فيّا

ومنع التجوُّل

صار قلبي حارهْ

وضلوعي حجارهْ

وأطلَّ القرنفل

وأطلَّ القرنفل

- ٥ -

وفي شهر آذار رائحةُ للنباتات . هذا زواجُ العناصرِ .

« آذار أقسى الشهور » وأكثرُها شَبَقًا . أيُّ

سيفٍ سيعبر بين شهيقي وبين زفيري ولايتكسَّرُ !

هذا عناقي الزراعيُّ في ذروة الحبّ . هذا انطلاقي

إلى العمر .

فاشتبكي يا نباتاتُ واشتركي في انتفاضة جسمي ، وعودة

حلمي إلى جسدي .

سوف تنفجر الأرض حين أُحقّقُ هذا الصراخ المكبَّلَ

بالريِّ والخجل القرويّ .

وفي شهر آذار نأتي إلى هَوَس الذكريات ، وتنمو علينا

النباتاتُ صاعدةً في اتجاهات كلِّ البدايات . هذا

نموُّ التداعي . أسمّي صعودي إلى الزنزلخت التداعي .

رأيتُ فتاةً على شاطىء البحر قبل ثلاثين عامًا

وقلت : أنا الموجُ ، فابتعدتْ في التداعي . رأيتُ

شهيدين يستمعانِ إلى البحر : عكا تجيء مع الموج .

عكا تروح مع الموجِ . وابتعدا في التداعي .

ومالت خديجةُ نحو الندى ، فاحترقتُ ، خديجةُ ! لا

تغلقي الباب !

إنَّ الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل شمس أريحا

بدون طقوس .

فيا وَطَنَ الأنبياء .. تكَاملْ !

ويا وطن الزراعين . . . تكامل

ويا وطن الشهداء . . . تكامل

ويا وطن الضائعين . . . تكامل

فكلٌّ شِعاب الجبال امتدادٌ لهذا النشيد ،

وكلُّ الأناشيد فيك امتداد لزيتونةٍ زمَّلتني .

-5-

مساء صغير على قرية مُهملهْ

وعينان نائمتانْ

أعود ثلاثين عامًا

وخمسَ حروب

وأشهد أن الزمانْ

يخبِّىءُ لي سنبلهْ

يغنّي المغنّي

عن النار والغرباء

وكان المساء مساء

وكان المغنّي يُغَنّي

ويستجوبونه :

لماذا تغنّي ؟

يردُّ عليهم :

لأنّي أُغنّي

وقد فتَّشوا صدرَهُ

فلم يجدوا غير قلبهْ

وقد فتشوا قلبَهُ

فلم يجدوا غير شعبهْ

وقد فتَّشوا صوتَهُ

فلم يجدوا غير حزنهْ

وقد فتَّشوا حزنَهُ

فلم يجدوا غير سجنْه

وقد فتَّشوا سجنَهُ

فلم يجدوا غير أنفسهم في القيود

وراء التلال ينام المغنّي وحيداً

وفي شهر آذار

تصعد منه الظلال

-٦و6-

أنا الأملُ السهلُ والرحبُ – قالت ليَ الأرضُ . والعشبُ

مثل التحيَّةِ في الفجر

هذا احتمال الذهاب إلى العمر خلف خديجةَ . لم يزرعوني

لكي يحصدوني

يريد الهواء الجليليُّ أن يتكلّم عني ، فينعس عند خديجة

يريد الغزال الجليليُّ أن يهدم اليوم سجني ، فيحرس ظل

خديجةَ وهي تميلُ على نارها

يا خديجةُ ! إني رأيتُ . . . وصدَّقتُ رؤيايَ . تأخذني

في مداها وتأخذني في هواها . أنا العاشقُ الأبديُّ ،

السجين البديهيُّ . يقتبسُ البرتقال اخضراري ويصبح

هاجسَ يافا

أنا الأرض منذ عرفتُ خديجةَ

لم يعرفوني لكي يقتلوني

بوسع النبات الجليليّ أن يترعرعَ بين أصابع كفي ويرسم

هذا المكان الموزَّعَ بين اجتهادي وحبٍّ خديجةَ

هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر من شهر آذار حتى

رحيل الهواءَ عن الأرضِ

هذا التراب ترابي

وهذا السحاب سحابي

وهذا جبين خديجهْ

أنا العاشق الأبديُّ – السجين البديهيُّ

رائحةُ الأرض تُوقظني في الصباح المبكِّر . . .

قيدي الحديديُّ يوقظها في المساء المبكر

هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر ،

لايسأل الذاهبون إلى العمر عن عمرهم

يسألون عن الأرض : هل نَهَضَتْ

طفلتي الأرضَ !

هل عرفوكِ لكي يذبحوكِ ؟

وهل قيَّدوكِ بأحلامنا فانحدرتِ إلى جرحنا في الشتاء ؟

وهل عرفوكِ لكي يذبحوكِ ؟

وهل قيَّدوكِ بأحلامهم فارتفعتِ إلى حلمنا في الربيعْ ؟

أنا الأرضُ . . .

يا أيها الذاهبون إلى حبة القمح في مهدها

أحرثوا جَسَدي !

أيها الذاهبون إلى جبل النار

مرّوا على جسدي

أيها الذاهبون إلى صخرة القدس

مرّوا على جسدي

أيها العابرون على جسدي

لن تمروا

أنا الأرض في جَسَدٍ

لن تمروا

أنا الأرض في صحوها

لن تمروا

أنا الأرض . يا أيها العابرون على الأرض في صحوها

لن تمروا

لن تمروا

لن تمروا !

* * *

١٦ عزف منفرد

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان ، هلْ أجِدُ
الشيءَ الذي كانَ والشيءَ الذي سيكونْ ؟
العزف منفردُ
والعزفُ منفردُ

*

من ألفِ أغنيةٍ حاولْتُ ان أولَدْ
بين الرماد وبين البحر . لم أجِدِ
الأمَّ التي كانت الأمَّ التي تَلِدُ
البحر يبتعدُ
والعزفُ منفردُ

*

صدَّقتُ روحيَ لمَّا قالتِ التصقِ
بالحائط الساقطِ ، استسلمتُ للشبَقِ

ولو كتبتُ على الصفصاف نوعَ دمي
لجاءتِ الريحُ عكسَ الريح في وَرَقِ
الصفصافِ ، والصفصافُ يَتَّقدُ
والعزفُ منفردُ

*

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان لن أجدا
غيرَ الذي لم أجدْهُ عندما كُنْتُ
يا ليتني شَجَرٌ كي أستعيد مدى
الراوي . وأسندَ أفقي حيثما مِلتُ
وليتني شَجَرٌ لا يستطيل سُدى . .
صَدَّقتُ حُلْميَ ؟ لا . صَدَّقْتُ ما يَرِدُ
والعزفُ منفردُ

*

بَحْرٌ أماميَ ، والجدرانُ ترجمني
دعْ عنكَ نفسكَ واسلمْ أيها الولَدُ .
البحر أصغرُ منِّي كيف يحملني ؟
والبحر أكبر مني كيف أحملهُ ؟

ضاقتْ بيّ اللغةُ ، استسلمتُ للسُّفُنِ
وغصٍّ بالقلبِ حين امتصَّهُ الزَّبَدُ
بحرٌ عليَّ . . وفيَّ الأبيضُ - الأبَدُ .
والعزفُ منفردُ

*

بَعْدَ البعيد بعيدٌ كُلَّما ابتعدا
صارَ البعيدُ قريبًا من خطوط يديْ
أجسُّهُ وأراهُ واحدًا أحدا
على هواءٍ لَهُ إيقاعُ أغنيتي .
سماؤنا فوقنا واستجمعت بَدَدا ؟
لو عدت يومًا إلى ما كان من بلدِ
الزيتون ، صحْتُ : تباطأ أيها البَلَدُ .
والعزفُ منفردُ

*

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان ، لن أجدا
الحُبَّ الذي كان والحبَّ الذي سيكونْ .
من ألفِ زنبقة حاولتُ أن أعدا

القلبَ القديمَ بقلبٍ توأمٍ ، وجنون
حبيبتي ! يا امتثالَ الروحِ للجسدِ
ويا نهايةَ ما لاينتهي أبدا
قطعتِ شريان مَوْجي يا ابنةَ الزَبَدِ
قطعتِ صوتيَ عن تاريخ أغنيتي .
وددتُ لو أجد الإيقاع ، لو أجِدُ .
والعزفُ منفردُ

*

قلتُ : الوداع لما يأتي ولا يصِلُ
ورحتُ أبحثُ عمًّا غابَ من قمري .
دعْ عنكَ موتكَ ، وارحل أيها الرجلُ
وارحل وهاجْر وسافْر داخلَ السَفَرِ
ليس المكان مكانًا حين تفقدهُ ،
ليس المكان مكانًا حينَ تنشُدُهُ .
وكُلَّما حطَّ دُوريٌّ على حَجَرِ
بحثتَ للقلب عن حوَّاءَ تُرْشِدُهُ
وكلما مالَ غُصْنٌ صحتُ : كم عَدَدُ

الهجراتِ ؟ كم عَدَدُ الأموات يا عَدَدُ .
والعزفُ منفردُ

*

. . وعابر في بلادي الناس ، لا ذكرى
تركتُ فيها ولا ذكرى حملتُ لها
كأنني لم أكن فيها ولم أرها .
خرجتُ أدخل أسمائي ، فبعثرها
النسيانُ ، وانقسمتْ نفسي لتُشهرها .
أمُرُّ بالشيء كاللاشيءِ . . لا أجِدُ
الشيء الذي يُوجَدْ
من ألف أغنيةٍ حاولتُ أن أُولدْ
لو عدتُ يومًا إلى نفسي فهلْ أجِدُ
النفسَ التي كانتِ النفسَ التي كانت ؟
ياليتني وَلَدُ ، يا ليتني وَلَدُ ،
والعزفُ منفردُ

* * *

١٧ آن للشاعر أن يقتل نفسه

آن للشاعر أن يقتل نفسَهْ

لا لشيء ، بل لكي يقتل نَفْسَهْ .

*

قال : لن أسمح للنحلة أن تمتصَّني

قال : لن أسمح للفكرة أن تَقْتَصَّ منِّي .

قال : لن أسمح للمرأة أن تتركني حيّاً على ركبتها .

*

من ثلاثين سَنَهْ

يكتب الشعر وينساني . وقعنا عن جميع الأحصنهْ

ووجدنا الملح في حبةِ قمحٍ ، وهو ينساني . خسرنا الأمكنهْ

وهو ينساني . أنا الآخر فيه .

*

كُلُّ شيء صورةٌ فيه . أنا مرآتُهُ
كُلُّ موتٍ صورةٌ . كُلُّ جَسَدْ
صورةٌ . كُلُّ رحيل صورة . كُلُّ بَلَدْ
صورةٌ . قلتُ كفى متنا تمامًا ، أين إِنسانيتي ؟ أين أنا ؟
قال : لا صورة إلاَّ للصورَ .

*

من ثلاثين شتاءْ
يكتب الشعر ويبني عالمًا ينهار حولهْ
يجمع الأشلاء كي يرسم عصفوراً وبابًا للفضاءْ
كُلَّما انهار جدارٌ حولنا شاد بيوتًا في اللغهْ
كلما ضاق بنا البرُّ بنى الجنة ، وامتدَّ بجُملهْ
من ثلاثين شتاء ، وهو يحيا خارجي .

*

قال : إنْ جئنا إلى أُولى المُدُنْ
ووجدناها غيابًا
وخرابًا

لا تُصدِّقْ

لاتُطَلِّقْ

شارعًا سرنا عليه .. وإليهِ .

تكذب الأرضُ ولا يكذب حُلْمٌ يتدلى من يديهِ .

*

من ثلاثين خريفًا

يكتب الشعر ولا يحيا ولايعشق إلاَّ صورَهْ

يدخل السجنَ فلا يُبصر إلاَّ قمرهْ

يدخلُ الحبَّ فلا يَقطِفُ إلاَّ ثمرهْ

قلتُ : ما المرأةُ فينا ؟ قال لي : تُفَّاحةٌ للمغفرةْ .

أين إنسانيَّتي ؟ صحتُ

فسدَّ الباب كي يبصرني خارجَهُ . يصرخ بي :

من فكرةٍ في صورةٍ في سُلَّم الإيقاع تأتي المرأةُ المنتظرهْ .

*

آن للشاعر أن يخرج مني للأبد .

ليس قلبي من ورقْ

آن لي أن أفترقْ

عن مراياايَ وعن شعب الورقْ . .

آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفقْ

آن للوردة أن تخرج من شوكتها كي تحترقْ

آن للشوكة أن تدخل قلبي كُلَّهُ

كي أرى قلبي ، وكي أسمع قلبي ، وأحسَّهْ .

آن للشاعر أن يقتل نفسهْ ،

لا لشيء ،

بل لكي يقتل نفسهْ .



١٨ رأيت الوداع الأخير

رَأَيْتُ الوَدَاعَ الأَخِيرَ : سَأُودعُ قَافِيَةً مِنْ خَشَبْ

سَأُرْفَعُ فَوْقَ أَكُفِّ الرِّجَال ، سَأُرْفَعُ فَوْقَ عُيُونِ النِّسَاءْ

سَأُرْزَمُ في عَلَمٍ ، ثُمَّ يُحْفَظُ صَوْتِيَ فِي علَبِ الأَشْرِطَهْ

سَتُغْفَرُ كُلُّ خَطَايَايَ فِي سَاعَةٍ ، ثُمَّ يَشْتُمُنِي الشُّعَرَاء .

سَيَذْكُرُ أَكْثَرُ مِنْ قَارِىءٍ أَنَّنِي كُنْتُ أَسْهَرُ فِي بَيْتِهِ كُلَّ لَيْلَهْ .

سَتَأْتِي فَتَاةٌ وتَزْعُمُ أَنِّي تَزَوَّجْتُهَا مُنْذُ عِشْرِينَ عَامًا . . وأكثر .

سَتُرْوَى أَسَاطِيرُ عَنِّي ، وَعَنْ صَدَفٍ كُنْتُ أَجْمَعُهُ مِنْ بِحَارٍ بَعِيدَهْ .

سَتَبْحَثُ صَاحِبَتِي عَنْ عَشِيقٍ جَدِيدٍ تُخَبِّئُهُ فِي ثِيَابِ الحِدَادْ .

سَأُبْصِرُ خَطَّ الجَنَازَهِ ، وَالمَارَّةَ المُتْعَبِينَ مِنَ الانْتِظَارْ .

وَلَكِنَّنِي لاَ أَرَى القَبْرَ بَعْدُ . أَلاَ قَبْرَ لِي بَعْدَ هَذَا التَّعَبْ ؟

* * *

١٩ وداعا لما سوف يأتي

وَدَاعًا لِمَا سَوْفَ يَأتِي بِهِ الوَقْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ . . وَدَاعًا .

وَدَاعًا لِمَا سَوْفَ تَأتِي بِهِ الأمْكِنَهْ . .

تَشَابَهَ فِي اللَّيْلِ لَيْلِي ، وَفِي الرَّمْلِ رَمْلِي ، وَمَا عَادَ قَلْبِيَ مَشَاعًا .

وَدَاعًا لِمَنْ سَأرَاهَا بِلادًا لِنَفْسِي ؛ لِمَنْ سَأرَاهَا ضِياعًا .

سَأعْرِفُ كَيْفَ سَأحْلُمُ بَعْدَ قَلِيلٍ ، وكَيْفَ سَأحْلُمُ بَعْدَ سَنَهْ ،

وَأعْرِفُ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ في رَقْصَةِ السَّيْفِ وَالسَّوْسَنَهْ ،

وكَيْفَ سَيَخْلَعُ عَنِّي القِنَاعُ القِنَاعَا .

أأسْرِقُ عُمْرِي لأحْيَا دَقَائِقَ أُخْرَى ؛ دَقَائِقَ بَيْنَ السَّرادِيبِ وَالمِئْذَنَهْ

لأشْهَدَ طَقْسَ القِيامَةِ فى حَفْلَةِ الكَهَنَهْ ،

لأعْرِفَ مَا كُنتُ أعْرِفُ ؟ إنِّي رَأيْتُ . . رَأيْتُ الوَدَاعَا .

* * *

٢٠ بقاياك للصقر

بَقَايَاكَ لِلصَّقرِ . مَنْ أَنْتَ كَيْ تَحفرَ الصَّخرَ وَحْدَكْ ،

وتَعْبرَ هَذَا الفَرَاغَ النِّهَائيَّ ، هَذَا البَيَاضَ النِّهَائيَّ ؟ مَرْحَى !

سَتَصْطَفُّ حَوْلَكَ خَرُّوبَتَانِ ، وأَرْمَلَتَانِ ، وَصَمْتُ الفَضَاءِ المُجَوَّفِ بَعْدَكْ

شُهُودًا عَلَى العَبَثِ البَشَرِي ؛ شُهُودًا عَلَى المُعْجِزَهْ .

أَفِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ ظِلَّكَ ، فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ وَرْدَكْ ؟

وَتَلْفظُ إِسْمَكَ واسْمَ بِلاَدِكَ واسْمِي مَعًا

بِلاَ خَطَإٍ ، يَا رَفِيقِي ، كَأَنَّكَ تَمْلِكُ شَيْئًا ، كَأَنَّكَ تَمْلِكُ وَعْدَكْ !

سَنُخْلِي لَكَ المَسْرَحَ الدَّائِرِيَّ . تَقَدَّمْ إِلَى الصَّقرِ وَحْدَكْ ،

فَلاَ أَرْضَ فِيكَ لِكَيْ تَتَلاَشَى ،

وَلِلصَّقرِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْكَ ، وَلِلصَّقرِ أَنْ يَتَقَمَّصَ جِلْدَكْ .

* * *

٢١ أنا يوسف يا أبي

أنَا يُوسُفٌ يَا أبِي . يَا أبِي ، إخْوَتِي لاَيُحِبُّونَنِي ، لاَ يُرِيـدُونَنِي بَيْنَهُم يَا أبِي . يَعْتَدُونَ عَلَيَّ وَيَرْمُـــونَنِي بِالحَصَى وَالـكَلاَمِ . يُرِيدُونَنِي أنْ أمُوتَ لِكَيْ يَمْدَحُونِي . وَهُمْ أوْصَدُوا بَابَ بَيْتِكَ دُونِي . وَهُمْ طَرَدُونِي مِنَ الحَقْلِ . هُمْ سَمَّمُوا عِنَبِي يَا أبِي . وَهُمْ حَطَّمُوا لُعَبِي يَا أبِي . حِينَ مَرَّ الـنَّسِيـمُ وَلاَعَبَ شَعْرِيَ غَارُوا وَثَارُوا عَلَيَّ وَثَارُوا عَلَيْكَ ، فَمَاذَا صَنَعْتُ لَهُمْ يَا أبِي ؟ الـفَرَاشَاتُ حَطَّتْ عَلَى كَتِفَيَّ ، وَمَالَتْ عَلَيَّ الـسَّنَابِلُ ، وَالـطَّيْرُ حَطَّتْ على راحتيَّ . فَمَاذَا فَعَلْتُ أنَا يَا أبِي ، وَلِمَاذَا أنَا ؟ أنْتَ سَمَّيْتَنِي يُوسُفًا ، وَهُمُو أوْقَعُونِيَ فِي الجُبِّ ، وَاتَّهَمُوا الـذِّئْبَ ؛ وَالـذِّئْبُ أرْحَمُ مِنْ إخْوَتِي .. أبتِ ! هَلْ جَنَيْتُ عَلَى أحَدٍ عِنْدَمَا قُلْتُ إنِّي : رَأيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، والشَّمْسَ والقَمَرَ ، رَأيْتُهُم لِي سَاجِدِينْ .



٢٢ أريد مزيداً من العمر

أُريدُ مزيداً مِنَ العُمْرِ كيْ نلْتقِي ، ومَزِيداً مِنَ الاغْترَابْ
ولَوْ كَانَ قَلْبي خفيفًا لأطْلَقْتُ قَلْبِي عَلَى كُلِّ نَخْلَهْ .

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ القَلْبِ كَيْ أَستَطِيعَ الوُصُولَ إِلَى سَاقِ نَخْلَهْ .
ولَوْ كَانَ عُمْرِي مَعِي لأنْتَظَرْتُكِ خَلْفَ زُجَاجِ الغِيَابْ .

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ الأُغْنِيَاتِ لأَحْمِلَ مَلْيُونَ بَابٍ . . . وبَابْ
وأَنْصبَهَا خَيْمَةً فِي مَهَبِّ البلادِ ، وأَسْكُنَ جُمْلَهْ .

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ السَّيِّدَاتِ لأَعْرِفَ آخِرَ قُبْلَهْ ،
وأَوَّلَ مَوْتٍ جَمِيلٍ عَلَى خِنْجَرٍ مِنْ نَبِيذِ السَّحَابْ .

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ العُمْرِ كَيْ يَعْرِفَ القَلْبُ أَهْلَهْ ،
وكَيْ أَستَطِيعَ الرُّجُوعَ إِلَى . . . سَاعَةٍ مِنْ تُرَابْ .

٢٣ ألا تستطيعين أن تطفئي قمراً

ألاَ تَستَطِيعِينَ أنْ تُطفِئِي قَمَرًا وَاحِدًا كَيْ أنَامْ ؟
أنَامُ قَلِيلاً عَلَى رُكْبَتَيْكِ ، فَيَصْحُو الكَلاَمْ
لِيَمْدَحَ مَوْجًا مِنَ القَمْحِ يَنْبُتُ بَيْنَ عُرُوقِ الرُّخَامْ ؟

تَطِيرينَ مِنِّي غَزَالاً يَخَافُ ، وَيَرْقُصُ حَوْلِي . يَخَافُ وَيَرْقُصُ حَوْلِي
وَلاَ أستَطِيعُ اللَّحَاقَ بِقَلْبٍ يَعَضُّ يَدَيْكِ وَيَصْرُخُ : ظِلِّي
لأعْرِفَ مِنْ أيِّ رِيحٍ يَهُبُّ عَلَيَّ سَحَابُ الحَمامْ .

ألا تَسْتَطِيعِينَ أنْ تُطفِئِي قَمَرًا وَاحِدًا كَيْ أرَى
غُرُورَ الغَزَالِ الأشُورِيِّ يَطْعَنُ صَيَّادَهُ قَمَرَا
أُفَتِّشُ عَنْكِ فَلاَ أهتَدِي . أيْنَ سُومَرُ فِيَّ . . وَأَيْنَ الشَّامْ ؟

تَذَكَّرْتُ أنِّي نَسَيْتُكِ . فَلْتَرْقُصِي فِي أعَالِي الكَلاَمْ

* * *

٢٤ خريف جديد لامرأة النار

خَرِيفٌ جَدِيدٌ لامْرَأَةِ النَّارِ : كُونِي كَمَا خَلَقَتْكِ الأَسَاطِيرُ وَالشَّهَوَاتُ . وَكُونِي رَصِيــــفًا لِمَا يَتَسَاقَطُ مِنْ وَرْدَتِي . وَرِيَاحًا لِبَحَّارَةٍ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبْحِرُوا . كَمْ أُرِيـدُكِ عِنْدَ هُبُوطِ الخَرِيــفِ عَلَى الـرُّوحِ ؛ كَمْ أَتَمَنَّى بَقَائِي شَرِيــدًا عَلَى قَدَمٍ مِنْ حَرِيــرِ المَدَائِحِ . كُونِي نِسَاءً لِقَلْبِي ، وأَسْمَاءَ عَيْنَيَّ كُونِي ، وِنَافِذَةً لِلْحَدِيقَــــــةِ كُونِي ، وَأَمًا لِيَأْسِي مِنَ الأَرْضِ . كُونِي مَلاَئِكَتِي، أَوْ خَطِيــئَةَ سَاقَيْنِ حَوْلِي ، أُحِبُّكِ قَبْلَ احْتِكَاكِ دَمِي بِالعَوَاصِفِ وَالنَّحْلِ ، كُونِي كَمَا كُنْتِ . كُونِي كَمَا لاَ تَكُونِينَ ، مُسِّي بِـأَطْرَافِ ظَلِّكِ جِنَّ الأَنَاشِيدِ يَصْحُ الكَلاَمُ عَلَى غَسَلِ الشَّهَوَاتِ . أُحِبُّكِ ، أَوْ لاَ أُحِبُّكِ ، لاَ أَسْتَطِيـعُ الـرُّجُوعَ إِلَى بَلَدِي . لاَ أُرِيدُ الـرُّجُوعَ إِلَى جَسَدِي . لاَ أُرِيـدُ الرُّجُوعَ إِلَى أَحَدٍ بَعْدَ هَذَا الخَرِيفْ .



٢٥ سيأتي الشتاء الذي كان

سَيَأتِي الشّتَاءُ الَّذِي كَانَ . . . لِلْمَرَّةِ العَاشِرَةْ

فَمَاذَا سَأفْعَلُ حِينَ يَجِيءُ الشّتَاءُ الذِي كَانَ ، مَاذَا سَأفْعَلُ كَيْ لا أمُوتَ

كَمَا مُتُّ ، مَا بَيْنَ قَلْبَيْنِ ، أعْلَى مِنَ الغَيْمِ أعْلَى . . وَأعْلَى ؟

أُعِدُّ لَكِ الذِّكْرَيَاتِ ، وَأفْتَحُ نَافِذَةً لِلْحَمَامِ المُصَابِ بِنِسْيَانِ دفْلَى

وَألْمَسُ فَرْوَ غِيَابِك . . هَلْ كان فِي وَسْعِنَا أنْ نُحِبَّ أقَلَّ

لِنَفْرَحَ أكْثَر ؟ هَلْ كَانَ فِي وسْعِنَا أنْ نُحِبَّ أقَلَّ . . أقَلَّ ؟

نُعِيدُ إِلَى الحُبِّ أشْيَاءَهُ : نُرْجِعُ الرُّوحَ لِلرُّوحِ ، نُرْجِعُ ظِلاً

إِلَى أهْلِهِ . نَتَبَادَلُ أسْمَاءَ نِسْيَانِنَا ، ثُمَّ نَرْجِعُ قَتْلَى . . وَأحْلَى

نُعِيدُ إِلَى الحُبِّ أشْيَاءَه ، زَهْرَةَ الوَقْتِ فِي جَسَدَيْنْ

وَلَكِنَّنَا لاَ نَعُودُ إِلَى نَفْسِنَا ، نَفْسِهَا ، مَرَّتَيْنْ !. .

* * *

٢٦ هدنة مع المغول
أمام غابة السنديان

كائنات من السنْديان تُطيلُ الوقوفَ على التلّ . . قَدْ
يصعَدُ العُشْبُ من خبزنا نحوها إنْ تركنا المكانَ ، وَقَدْ
يهبط اللازوردُ السماويُّ منها إلى الظلّ فوق الحصونْ .
مَنْ سيملأ فُخَّارنا بعدنا ؟ مَنْ يُغيِّرُ أعداءنا عندما يعرفونْ
أننا صاعدون إلى التلّ كي نمدَحَ اللهَ . .

في كائناتٍ من السنديانْ ؟

*

كُلُّ شيء يدلُّ على عَبَث الريح ، لكننا لا نَهُبُّ هباءْ
ربَّما كان هذا النهارُ أخَفَّ علينا من الأمس ، نحن الذينْ
قد أطالوا المكوثَ أمام السماء ، ولم يعبدوا غير ما فَقَدُوا
ن عبادتهمْ . ربَّما كانت الأرضُ أوسعَ من وَصْفها . ربما

كان هذا الطريقُ دخولاً مع الريح . .

في غابة السنديانْ

*

الضحايا تَمرُّ من الجانبيْن ، تقول كلامًا أخيرًا وتسقط في

عالَمٍ واحدٍ . سوف ينتصرُ النسْرُ والسنديانُ عليها ، فلا بُدَّ مِنْ

هُدْنَةٍ للشقائق في السهل كي تُخْفِيَ الميتين على الجانبين ، وكيْ

نَتَبَادَلَ بَعْضَ الشتائم قبل الوصول إلى التلّ . لا بُدَّ مِنْ

تَعَبٍ آدميّ يُحَوِّل تلك الخيولَ إلى . .

كائناتٍ من السنديانْ

*

الصدى واحدٌ في البراري : صدى . والسماءُ على حجر غربَةٌ

عَلَّقَتْها الطيورُ على لا نهايات هذا الفضاء ، وطارتْ . .

والصدى واحدٌ في الحروب الطويلة : أمٌّ ، أبٌ ، وَلَدٌ صَدَّقوا

أنَّ خلف البحيرات خيلاً تعود إليهم مُطَهَّمةً بالرجاء الأخيرْ

فأعدُّوا لأحلامهم قهوةً تمنع النومَ . .

في شَبَح السنديانْ

*

كُلُّ حربٍ تُعَلِّمنا أن نحبَّ الطبيعةَ أكثرَ : بعد الحصارْ
نَعتَني بالزنابقِ أكثرَ ، نقطف قُطْنَ الحنان من اللَوْزِ في
شهر آذارَ . نزرع غاردينيا في الرخام ، ونَسْقي نباتاتِ جيراننا
عندما يذهبون إلى صَيْد غزلاننا . فمتى تَضَعُ الحربُ أوزارها
كي نفُكَّ خُصُورَ النساء على التلّ . .

من عُقدة الرَّمز في السنديانْ ؟

*

ليت أعداءَنا يأخذون مقاعدنا في الأساطير ، كي يعلموا
كم نُحبُّ الرصيفَ الذي يكرهون . . ويا ليتهم يأخذونْ
ما لنا من نُحاس وبرْق . . لنأخذ منهم حرير الضجرْ
ليت أعداءنا يقرأون رسائلنا مرتين ، ثلاثًا . . ليعتذروا
للفراشة عن لعبة النار . .

في غابة السنديانْ

*

كم أردنا السلامَ لسيِّدنا في الأعالي . . لسيدنا في الكُتُبْ
كم أردنا السلامَ لغازلة الصُوف . . للطفل قرب المغارةْ
لِهُواة الحياة . . لأولاد أعدائنا في مخابئهمْ . . للمَغُولْ

عندما يذهبون إلى ليل زوجاتهم ، عندما يرحلونْ
عن براعم أزهارنا الآن . . عنَّا ،
وعن ورَق السنديانْ

*

الحروب تُعَلِّمنا أن نذوق الهواء وأن نمدح الماء . كَمْ
ليلةً سوف نفرح بالحُمُّص الصلْب والكستنا في جيوب معاطفنا؟
أمْ سننسى مهارتنا في امتصاص الرذاذ ؟ ونسأل : هَلْ
كان في وُسْع مَنْ مات ألاَّ يموت ليبدأ سيرتَهُ من هنا ؟
ربَّما . . ربَّما نستطيع مديح النبيذ ونرفعُ
نخبًا لأرملة السنديانْ

*

كُلُّ قَلْبٍ هنا لا يردُّ على الناي يسقط في
شَرَك العنكبوت . تمهَّلْ تمهَّلْ لتسمع رَجْعَ الصدى
فوق خيل العَدُوّ ، فإنَّ المغُول يُحبُّون خمرتنا
ويريدون أن يَرْتَدوا جلد زوجاتنا في الليالي ، وأنْ
يأخذوا شعراء القبيلة أسرى ، وأنْ
يقطعُوا شَجَرَ السنديانْ

*

المغُول يريدوننا أن نكون كما يبتغون لنا أن نكونْ
حفنةً من هبوب الغبار على الصين أو فارسٍ ، ويريدوننا
أن نُحبَّ أغانِيَهُمْ كُلَّها كي يَحُلَّ السلامُ الذي يطلبونْ . .
سوف نحفظ أمثالهم . . سوف نغفر أفعالَهُم عندما يذهبونْ
مَعَ هذا المساء إلى ريح أجدادهِمْ
خلفَ أُغنيةِ السنديانْ

*

لمْ يجيئوا لينتصروا ، فالخرافةُ ليست خرافتَهُمْ . إنهم يهبطونْ
من رحيل الخيول إلى غرب آسيا المريضِ ، ولايعرفونْ
أنَّ في وسعنا أن نقاوم غازان – أرغون ألفَ سَنَةْ
بَيْدَ أن الخرافةَ ليست خرافتَهُ . سوف يدخل عَمَّا قليلْ
دينَ قتلاهُ كي يتعلَّم منهم كلامَ قُرَيْش . .
ومعجزةَ السنديانْ

*

الصّدَى واحدٌ في الليالي . على قمّة الليل نُحْصي
النجومَ على صدر سيِّدنا ، عُمْرَ أولادنا – كبروا سَنَةً بعدنا –
غَنَمَ الأهل تحت الضباب ، وأعدادَ قتلى المغول ، وأعدادَنا

والصدى واحدٌ في الليالي : سنرجع يومًا ، فلا بُدَّ من
شاعرٍ فارسيٍّ لهذا الحنين .

إلى لُغَةِ السنديانْ

*

الحرُوبُ تعلّمنا أن نحبَّ التفاصيل : شكْلَ مفاتيحِ أبوابنا ،
أن نُمَشِّطَ حنطتنا بالرموش ، ونمشي خِفَافًا على أرضنا ،
أن نقدِّسَ ساعاتِ قبل الغروب على شجر الزَنْزَلَخْت . .
والحروبُ تُعَلِّمُنا أن نرى صورة الله في كل شيء ، وأنْ
نَتَحمَّل عبء الأساطير كي نُخْرِجَ الوحشَ .

من قصَّة السنديانْ

*

كم سنضحك من سُوس خُبْز الحروب ومن دُودِ ماء الحروب،
إذا ما انتصرنا نُعَلِّقُ أعلامنا السودَ فوق حبال الغسيلْ
ثم نَصْنَع منها جواربَ . . أما النشيدُ ، فلا بُدَّ من رَفْعِهِ
في جنازات أبطالنا الخالدين . . وأما السبايا ، فلا
بُدَّ من عتقهنَّ ، ولا بُدَّ من مَطَرٍ

فَوق ذاكرة السنديانْ

خَلْفَ هذا المساء نرى ما تبقّى من الليل ، عما قليلْ
يشرب القَمَرُ الحُرُّ شايَ المُحَارب تحت الشجَرْ
قَمَرٌ واحدٌ للجميع على الخندقين لَهُمْ ولنا ، هَلْ لَهُمْ
خلف تلك الجبال بيوتٌ من الطين ، شايٌ ، ونايٌ ؟ وهَلْ
عندهُمْ حَبَقٌ مثلنا يُرجع الذاهبين من الموت . . .
في غابة السنديانْ ؟

*

. . وأخيراً ، صعدْنا إلى التلّ . ها نحن نرتفع الآن
فوق جذوع الحكاية . . ينبت عُشْبٌ جديد على دمنا وعلى دمهم
سوف نحشو بنادقنا بالرياحين ، سوف نُطَوِّق أعناقَ ذاك
الحمام بأوسمة العائدين . . ولكننا
لم نجد أحدًا يقبل السِلْم . . لا نحن نحن ولا غيرنا غيرنا
البَنادِقُ مكسورة . . والحمامُ يطير بعيدًا بعيدًا
لم نجد أحدًا ههُنا . .
لم نجد أحدًا . .
لم نجد غابة السنديانْ !

* * *

٢٨ أحد عشر كوكبا
على آخر المشهد الأندلسى

I

في المَساءِ الأخير
على هذهِ الأرْض

فِي الْمَساءِ الأخيرِ على هذهِ الأرْضِ نَقْطَعُ أيَّامَنا
عَنْ شُجَيْراتِنا ، ونَعُدُّ الضُلوعَ الَّتي سَوْفَ نَحْمِلُها مَعَنا
وَالضُّلوعَ الَّتي سَوْفَ نَتْرُكُها ، ههُنا . . . في الْمَساءِ الأخيرْ
لا نُوَدِّعُ شيْئًا ، ولا نَجِدُ الْوَقْتَ كَيْ نَنْتَهي . . .
كُلُّ شَيْءٍ يَظَلُّ على حالِه ، فَالْمكانُ يُبَدِّلُ أحْلامَنا
وَيُبَدِّلُ زُوّارَه . فَجْأَةً لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على السُّخْرِيَة
فالْمكانُ مُعَدٌّ لِكَيْ يَسْتَضيفَ الْهَباءَ . . . هُنا فِي الْمَساءِ الأخيرْ
تَتَمَلّى الْجِبالَ الْمُحيطَةَ بِالْغَيْمِ : فَتْحٌ . . . وَفَتْحٌ مُضادّ
وَزَمانٌ قَديمٌ يُسَلِّمُ هذا الزّمانَ الْجَديدَ مَفاتيحَ أبْوابِنا

فَادْخلوا ، أَيُّها الْفاتِحونَ ، مَنازِلَنا واشْرَبوا خَمْرَنا
مِنْ مُوَشَّحِنا السَّهْلِ . فاللَّيْلُ نَحْنُ إذا انْتَصَفَ اللَّيْلُ ، لا
فَجْرَ يَحْمِلُهُ فارِسٌ قادِمٌ مِنْ نَواحي الأَذانِ الأَخيرْ . . .
شايُنا أَخْضَرٌ ساخِنٌ فَاشْرَبوهُ ، وَفُسْتُقُنا طازَجٌ فَكُلوه
والأَسِرَّةُ خَضْراءُ مِنْ خَشَبِ الأَرْزِ ، فَاسْتَسْلِموا لِلنُّعاسْ
بَعْدَ هذا الْحِصارِ الطَّويلِ ، وَناموا على ريشِ أَحْلامِنا
المُلاءاتُ جاهِزَةٌ ، والْعُطورُ على الْبابِ جاهِزَةٌ ، وَالمرايا كَثيرَة
فَادْخُلوها لِنَخْرُجَ مِنْها تَمامًا ، وَعَمّا قَليلٍ سَنَبْحَثُ عَمّا
كانَ تاريخَنا حَوْلَ تاريخِكُمْ في الْبِلادِ الْبَعيدَة
وَسَنَسْأَلُ أَنْفُسَنا فِي النِّهايَةِ : هَلْ كانَتِ الأَنْدَلُسْ
ههُنا أَمْ هناكَ ؟ على الأَرْضِ . . . أَمْ في الْقَصيدَة ؟

II

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحاب ؟

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحابِ وَصِيَّةَ أَهْلي ؟ وَأَهْلي
يَتْرُكونَ الزَّمانَ كَما يَتْرُكونَ مَعاطِفَهُمْ في الْبُيوتِ ، وَأَهْلي
كُلَّما شَيَّدوا قَلْعَةً هَدَموها لِكَيْ يَرْفَعوا فَوْقَها

خَيْمَةٌ لِلْحَنِينِ إلى أوّلِ النَّخلِ . أهْلي يَخُونونَ أهْلي
في حُروبِ الدِّفاعِ عَنِ المِلْحِ . لكِنَّ غَرْناطَةً مِنْ ذَهَبٍ
مِنْ حَريرِ الْكَلامِ المُطَرَّزِ بِاللَّوْزِ ، مِنْ فِضَّةِ الدَّمْعِ في
وتَرِ الْعودِ . غَرْناطَةٌ لِلصُّعودِ الْكَبيرِ إلى ذاتِها . . .
ولَها أنْ تكونَ كَما تَبْتَغي أنْ تكونَ : الْحَنينَ إلى
أيِّ شَيْءٍ مَضى أوْ سَيَمْضي : يَحُكُّ جَناحُ سُنونوَةٍ
نهْدَ امْرأةٍ في السَّريرِ ، فَتَصْرُخُ : غَرْناطَةٌ جَسَدي
ويُضَيِّعُ شَخْصٌ غَزالَتَهُ في الْبَراري ، فَيَصْرُخُ : غَرْناطَةٌ بَلَدي
وأنا مِنْ هُناكَ ، فَغَنّي لِتَبْني الْحَساسينُ مِنْ أضْلُعي
دَرَجًا لِلسَّماءِ الْقَريبَةِ . غَنّي فُروسِيَّةَ الصّاعِدينَ إلى حَتْفِهِمْ
قَمَرًا قَمَرًا في زُقاقِ الْعشيقَةِ . غَنّي طُيورَ الْحَديقَة
حَجَرًا حَجرًا . كَمْ أُحِبُّكِ أنْتِ الّتي قَطَّعْتِني
وتَرًا وتَرًا في الطَّريقِ إلى لَيْلِها الحارِّ ، غنّي
لا صَباحَ لِرائحةِ الْبُنِّ بَعْدَكِ غَنّي رَحيلي
عَنْ هَديلِ الْيَمامِ على رُكْبَتَيْكِ وعَنْ عُشِّ روحي
في حُروفِ اسْمِكِ السَّهْلِ ، غَرْناطَةٌ لِلْغناءِ فَغَنّي !

III

لي خلفَ السماءِ سماء...

لِيَ خَلْفَ السَّماءِ سَماءٌ لأَرْجِعَ ، لكِنَّني

لاَ أَزالُ أُلَمِّعُ مَعْدِنَ هذا الْمكانِ ، وأَحْيا

ساعةً تُبصِرُ الْغَيْبَ . أَعْرِفُ أَنَّ الزَّمانْ

لا يُحالِفُني مَرَّتَيْنِ ، وأَعْرِفُ أَنِّي سأَخْرُجُ مِنْ

رايَتي طائرًا لا يَحُطُّ على شَجَرٍ في الْحَديقَةْ

سَوْفَ أَخْرُجُ مِنْ كُلِّ جِلْدي ، وَمِنْ لُغَتي

سَوْفَ يَهْبِطُ بَعْضُ الْكَلامِ عَنِ الْحُبِّ في

شِعْرِ لوركا الَّذي سَوْفَ يَسْكُنُ غُرْفَةَ نَوْمي

ويَرى ما رأَيْتُ مِنَ الْقَمرِ الْبَدَوِيِّ . سأَخْرُجُ مِنْ

شَجَرِ اللَّوْزِ قُطْنًا على زَبَدِ الْبَحْرِ . مَرَّ الْغَريبْ

حامِلاً سَبْعَمائَةِ عامٍ مِنَ الْخَيْلِ . مَرَّ الْغَريبْ

ههُنا ، كَيْ يَمُرَّ الْغَريبُ هناكَ . سأَخْرُجُ بَعْدَ قليل

مِنْ تَجاعيدِ وَقْتي غَريبًا عَنِ الشَّامِ وَالأَنْدَلُسْ

هذِهِ الأَرْضُ لَيْسَتْ سَمائي ، ولكِنَّ هذا الْمَساءَ مَسائي

وَالْمفاتيحَ لي ، وَالْمآذِنَ لي ، وَالْمَصابِيحَ لي ، وأَنا
لِيَ أَيْضًا . أنا آدَمُ الْجَنَّتَيْن ، فَقَدْتُهُما مَرَّتَيْن .
فَاطْرُدوني على مَهَلٍ ،
وَاقْتُلوني على عَجَلٍ ،
تَحْتَ زَيْتونَتي ،
مَعَ لوركا . .

IV

أنا واحِدٌ مِن مُلوكِ النِّهاية

. . . وأنا واحِدٌ مِنْ مُلوكِ النِّهايَة . . . أَقْفِزُ عَنْ
فَرَسي في الشِّتاءِ الأخيرِ ، أنا زَفْرَةُ الْعَرَبيِّ الأَخيرَة
لاَ أُطِلُّ على الآسِ فَوْقَ سُطوحِ الْبُيوتِ ، وَلا
أَتَطَلَّعُ حَوْلي لِئَلاَّ يَراني هُنا أَحَدٌ كانَ يَعْرِفُني
كانَ يَعْرِفُ أَنّي صَقَلْتُ رُخامَ الْكَلامِ لِتَعْبُرَ امْرأتي
بُقَعَ الضَّوْءِ حافِيَةً ، لا أُطِلُّ على اللَّيْلِ كَيْ
لا أرى قَمَرًا كانَ يُشْعِلُ أَسْرارَ غَرْناطَةَ كُلَّها
جَسَدًا جَسَدًا . لا أُطِلُّ على الظِّلِّ كَيْ لا أرى

أَحَدًا يَحْمِلُ اسْمي ويَرْكُضُ خَلْفي : خُذِ اسْمَكَ عَنّي
واعْطِني فِضَّةَ الْحَوْرِ . لا أتلَفَّتُ خَلْفي لِئَلاّ
أتَذَكَّرَ أنّي مَرَرْتُ على الأرْضِ ، لا أرْضَ في
هذِهِ الأرْضِ مُنْذُ تَكَسَّرَ حَوْلي الزَّمانُ شَظايا شَظايا
لَمْ أكُنْ عاشِقًا كَيْ أُصَدِّقَ أنَّ الْمِياهَ مَرايا ،
مِثْلَما قُلْتُ لِلأَصْدِقاءِ الْقُدامى ، ولا حُبَّ يَشْفَعُ لي
مُذْ قَبِلْتُ « مُعاهَدَةَ التيه » لَمْ يَبْقَ لي حاضِرٌ
كَيْ أمُرَّ غَدًا قُرْبَ أمْسي . سَتَرْفَعُ قَشْتالَةُ
تاجَها فَوْقَ مِئْذَنَةِ اللّهِ . أسْمَعُ خَشْخَشَةً لِلْمَفاتيحِ في
بابِ تاريخنا الذَّهَبِيِّ ، وَداعًا لِتاريخنا ، هَلْ أنا
مَنْ سَيُغْلِقُ باب السَّماءِ الأخيرَ ؟ أنا زَفْرَةُ الْعَرَبِيِّ الأخيرَةْ

V

ذاتَ يومٍ ، سأجلسُ فوقَ الرَّصيف

ذاتَ يَوْمٍ سأَجْلِسُ فَوْقَ الرَّصيفِ . . . رَصيفِ الْغَريبَة
لَمْ أكُنْ نَرْجِسًا ، بَيْدَ أنّي أُدافِعُ عَنْ صُورَتي
في الْمَرايا . أما كُنْتَ يَوْمًا ، هُنا ، يا غَريبْ ؟

خَمْسُمائَةِ عامٍ مَضى وَانْقَضى ، وَالْقَطيعَةُ لَمْ تَكْتَمِلْ
بَيْنَنا ، ههُنا ، والرَّسائِلُ لَمْ تَنْقَطِعْ بَيْنَنا ، وَالْحُروبُ
لَمْ تُغَيِّرْ حَدائِقَ غَرْناطَتي . ذاتَ يَوْمٍ أَمُرُّ بِأَقْمارِها
وَأَحُكُّ بِلَيْمونَةٍ رَغْبَتي . . . عانِقيني لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ رَوائِحِ شَمْسٍ وَنَهْرٍ على كَتِفَيْكِ ، وَمِنْ قَدَمَيْنِ
تَخْمُشانِ الْمَساءَ فَيَبْكي حَليبًا لِلَّيْلِ الْقَصيدَةْ . . .
لَمْ أَكُنْ عابِرًا في كَلامِ الْمُغَنّينَ . . . كُنْتُ كَلامَ
الْمُغَنّينَ ، صُلْحَ أَثينا وَفارِسَ ، شَرْقًا يُعانِقُ غَرْبًا
في الرَّحيلِ إلى جَوْهَرٍ واحِدٍ . عانِقيني لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ سُيوفٍ دِمَشْقِيَّةٍ في الدَّكاكينِ . لَمْ يَبْقَ مِنّي
غَيْرُ دِرْعي الْقَديمَةِ ، سَرْجِ حِصاني الْمُذَهَّبِ . لَمْ يَبْقَ مِنّي
غَيْرُ مَخْطوطَةٍ لابْنِ رُشْدٍ ، وَطَوْقِ الْحَمامَةِ ، والتَّرْجَمات . . .
كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَ الرَّصيفِ على ساحَةِ الأُقْحُوانَةِ
وأَعُدُّ الْحَماماتِ : واحِدَةً ، اثْنَتَيْن ، ثَلاثينَ . . . وَالْفَتَياتِ اللَّواتي
يتخاطَفْنَ ظِلَّ الشُّجَيْراتِ فَوْقَ الرُّخامِ ، وَيَتْرُكْنَ لي
وَرَقَ الْعُمْرِ أَصْفَرَ . مَرَّ الْخَريفُ عليَّ وَلَمْ أَنْتَبِهْ

مَرَّ كُلُّ الْخَرِيفِ ، وَتاريخُنا مَرَّ فَوْقَ الرَّصيفِ . . .

وَلَمْ أَنْتَبِهْ !

VI

لِلحَقيقةِ وَجْهانِ وَالثلجُ أسوَدُ

لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ ، وَالثَّلْجُ أَسْوَدُ فَوْقَ مَدينَتِنا

لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على الْيَأسِ أَكْثَرَ مِمّا يَئِسْنا ،

وَالنِّهايَةُ تَمْشي إلى السّورِ واثِقَةً مِنْ خُطاها

فَوْقَ هذا الْبَلاطِ الْمُبَلَّلِ بِالدَّمْعِ ، واثِقَةً مِنْ خُطاها

مَنْ سَيُنْزِلُ أَعْلامَنا : نَحْنُ ، أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ

سَوْفَ يَتْلو عَلَيْنا « مُعاهَدَةَ اليأس » ، يا مَلِكَ الاحْتِضار ؟

كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا سَلَفًا ، مَنْ سَيَنْزِعُ أَسْماءَنا

عَنْ هُوِيَّتِنا : أَنتَ أَمْ هُمْ ؟ وَمَنْ سَوْفَ يَزْرَعُ فينا

خُطْبَةَ التّيهِ : « لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَفُكَّ الْحِصار

فَلْنُسَلِّمْ مَفاتيحَ فِرْدَوْسِنا لرسولِ السَّلامِ ، وَنَنْجو . . . »

لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ ، كانَ الشِّعارُ الْمُقَدَّسُ سَيْفًا لَنا

وَعَلَيْنا ، فَماذا فَعَلْتَ بِقَلْعَتِنا قَبْلَ هذا النَّهار ؟

لَمْ تُقاتِلْ لأنَّكَ تَخشى الشَّهادَةَ ، لكِنَّ عَرْشَكَ نَعْشُكْ
فاحْمِلِ النَّعْشَ كَيْ تَحفَظَ الْعَرْشَ ، يا مَلِكَ الانْتظار
إنَّ هذا الرحيلَ سَيَتْرُكُنا حُفْنَةً مِنْ غُبار . . .
مَنْ سَيَدْفِنُ أيّامَنا بَعْدَنا : أنْتَ . . . أمْ هُمْ ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَرْفَعُ راياتِهِمْ فَوْقَ أسْوارِنا : أنْتَ . . . أمْ
فارِسٌ يائِسٌ ؟ مَنْ يُعَلِّقُ أجْراسَهُمْ فَوْقَ رِحْلَتِنا
أنْتَ . . . أمْ حارِسٌ بائِسٌ ؟ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا
فَلِماذا تُطيلُ النهايةَ ، يا مَلِكَ الاحْتِضارْ ؟

VII

مَنْ أنا ... بَعْدَ لَيلِ الغَريبة ؟

مَن أنا بعدَ ليلِ الغريبة ؟ أنهضُ مِنْ حُلُمي
خائِفًا مِنْ غُموضِ النَّهارِ على مَرْمَرِ الدّارِ ، مِنْ
عَتْمةِ الشَّمْسِ في الْوَرْدِ ، مِنْ ماءِ نافورَتي
خائِفًا مِن حَليبٍ على شَفَةِ التّينِ ، مِنْ لُغَتي
خائِفًا ، مِنْ هَواءٍ يُمَشِّطُ صَفْصافَةً خائِفًا ، خائفا
مِنْ وُضوحِ الزَّمانِ الْكَثيفِ ، وَمِنْ حاضِرٍ لَمْ يَعُدْ

حاضِراً ، خائفًا مِنْ مُروري على عالَمٍ لَمْ يَعُدْ
عالَمي . أَيُّها اليَأْسُ كُنْ رَحْمَةً . أَيُّها المَوْتُ كُنْ
نِعْمَةً لِلْغَريبِ الَّذي يُبصِرُ الْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
واقِعٍ لَمْ يَعُدْ واقِعًا . سَوْفَ أَسْقُطُ مِنْ نَجْمَةٍ
في السَّماءِ إِلى خَيْمَةٍ في الطَّريقِ إِلى . . . أَيْن ؟
أَيْنَ الطَّريقُ إِلى أَيِّ شَيْءٍ ؟ أَرى الْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
شارِعٍ لَمْ يَعُدْ شارِعي . مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةْ ؟
كُنْتُ أَمْشي إِلى الذّاتِ وَالآخَرينَ ، وها أَنَذا
أَخْسَرُ الذّاتَ والآخَرينَ . حِصاني على ساحِلِ الأَطْلَسيِّ اخْتَفى
وَحِصاني على ساحِلِ الْمُتَوَسِّطِ يُغْمِدُ رُمْحَ الصَّليبِيِّ فيَّ .
مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ ؟ لا أَسْتَطيعُ الرُّجوعَ إِلى
إِخْوَتي قُرْبَ نَخْلَةِ بَيْتي القَديم ، ولا أَسْتَطيعُ النُّزولَ إِلى
قاعِ هاوِيَتي . أَيُّها الْغَيْبُ ! لا قَلْبَ لِلْحُبِّ . . . لا
قَلْبَ لِلْحُبِّ أَسْكُنُهُ بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ . . .

VIII

كنْ لجيتارتي وترًا أيّها الماء

كُنْ لِجيتارتَي وتَرًا أَيُّها الْماءُ ؛ قَدْ وَصَلَ الْفاتِحون

وَمَضى الْفاتِحونَ الْقُدامى . مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَتَذَكَّرَ وَجْهي

في الْمَرايا . فَكُنْ أَنْتَ ذاكِرَتي كَيْ أَرى ما فَقَدْت . . .

مَنْ أَنا بَعْدَ هذا الرَّحيلِ الْجَماعِيِّ ؟ لي صَخْرَةٌ

تَحْمِلُ اسْمِيَ فَوْقَ هِضابٍ تُطِلُّ على ما مَضى

وَانْقَضى . . . سَبْعُمائةِ عامٍ تُشَيِّعُني خَلْفَ سُورِ الْمَدينَة . . .

عَبَثًا يَسْتَديرُ الزَّمانُ لأُنْقِذَ ماضِيَّ مِنْ بُرْهَةٍ

تَلِدُ الآنَ تاريخَ مَنْفايَ فِيَّ . . . وَفي الآخَرين . . .

كُنْ لِجيتارَتي وتَرًا أَيُّها الْماءُ ، قَدْ وَصَلَ الْفاتِحون

وَمَضى الْفاتِحونَ القُدامى جَنوبًا شُعوبًا تُرَمِّمُ أَيّامَها

في رُكامِ التَّحَوُّلِ : أَعْرِفُ مَنْ كُنْتُ أَمْسِ ، فَماذا أَكُونْ

في غَدٍ تَحْتَ رَاياتِ كولومبوسَ الأَطْلَسِيَّة ؟ كُنْ وَتَرًا

كُنْ لِجيتارَتي وَتَرًا أَيُّها الْماءُ . لا مِصْرَ في مِصْرَ ، لا

فاسَ في فاسَ ، وَالشّامُ تَنْأى . ولا صَقْرَ في

رايَةِ الأهْلِ ، لا نَهْرَ شَرْقَ النَّخيلِ الْمُحاصَرْ
بِخُيولِ الْمَغولِ السَّريعَةِ . في أيِّ أنْدَلُسٍ أنْتَهي ؟ ههُنا
أمْ هُناكَ ؟ سأعْرِف أنّي هَلَكْتُ وأنّي تَرَكْتُ هُنا
خَيْرَ مافِيَّ : ماضِيَّ . لَمْ يَبْقَ لي غَيْرُ جيتارتي
كُنْ لِجيتارَتي وَتَرًا أيُّها الْماءُ . قَدْ ذَهَبَ الْفاتِحون
وأتى الْفاتِحون . . .

IX

في الرَّحيلِ الكَبيرِ أحِبُّكِ أكثرَ ...

في الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّكِ أكْثَرَ ، عَمّا قَليلْ
تُقْفِلينَ الْمَدينَةَ . لا قَلْبَ لي في يَدَيْكِ ، ولا
دَرْبَ يَحْمِلُني ، في الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّكِ أكْثَرْ
لا حَليبَ لِرُمّانِ شُرْفَتِنا بَعْدَ صَدْرِكِ . خَفَّ النَّخيلْ
خَفَّ وَزْنُ التِّلالِ ، وَخَفَّتْ شَوارِعُنا في الأصيلْ
خَفَّتِ الأرْضُ إذْ وَدَّعَتْ أرْضَها . خَفَّتِ الْكَلِمات
وَالْحِكاياتُ خفَّتْ على دَرَجِ اللَّيْلِ . لكِنَّ قَلْبي ثَقيلْ
فَاتْرُكيهِ هُنا حَوْلَ بَيْتِكِ يَعْوي ويَبْكي الزَّمانَ الْجَميلْ،

لَيْسَ لي وَطَنٌ غَيْرُهُ ، في الرَّحيلِ أُحِبُّكِ أَكْثَرْ
أُفْرِغُ الرّوحَ مِنْ آخِرِ الْكلماتِ : أُحِبُّكِ أكْثَر
في الرَّحيلِ تَقودُ الفَرَاشاتُ أَرْواحَنا ، في الرَّحيلْ
نَتَذَكَّرُ زِرَّ الْقَميصِ الَّذي ضاعَ مِنّا ، وَنَنْسى
تاجَ أَيّامِنا ، نَتَذَكَّرُ رائِحَةَ الْعَرَقِ الْمِشْمِشِيِّ ، وَنَنْسى
رَقْصَةَ الْخَيْلِ في لَيْلِ أَعْراسِنا ، في الرَّحيلْ
نَتَساوى مَعَ الطَّيْرِ ، نَرْحَمُ أَيّامَنا ، نكْتَفي بِالْقَليلْ
أكْتَفي مِنْكِ بالْخَنْجَرِ الذَّهَبِيِّ يُرَقِّصُ قَلْبي الْقَتيلْ
فَاقْتُليني ، على مَهَلٍ ، كَيْ أقولَ : أُحِبُّكِ أكْثَرَ مِمّا
قُلْتُ قَبْلَ الرَّحيلِ الْكَبيرِ . أُحِبُّكِ . لا شَيْءَ يوجِعني
لا الْهَواءُ ، ولا الْماءُ . . . لا حَبَقٌ في صَباحِكِ ، لا
زَنْبَقٌ في مَسائِك يوجِعُني بَعْدَ هذا الرَّحيلْ . . .

X

لا أريدُ مِنَ الحبِّ غيرَ البِدايةِ

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ ، يَرْفو الْحَمامُ
فَوْقَ ساحاتِ غَرْناطَتي ثَوْبَ هذا النَّهار

فِي الْجِرارِ كَثيرٌ مِنَ الْخَمْرِ لِلْعيدِ مِنْ بَعْدِنا
فِي الأَغاني نَوافِذُ تَكْفي وتَكْفي لِيَنْفَجِرَ الْجُلَّنار

أَتْرُكُ الْفُلَّ في الْمَزهَرِيَّةِ ، أَتْرُكُ قَلْبي الصَّغير
في خِزانَةِ أُمِّيَ ، أَتْرُكُ حُلْمِيَ في الْماءِ يَضْحَك
أَتْرُكُ الْفَجْرَ في عَسَلِ التِّينِ ، أَتْرُكُ يَوْمي وأَمْسي
في الْمَمَرِّ إِلى ساحَةِ الْبُرْتُقالَةِ حَيْثُ يَطيرُ الْحَمامُ
هَلْ أَنا مَنْ نَزَلْتُ إِلى قَدَمَيْكِ ، لِيَعْلُوَ الْكَلامُ
قَمَراً في حَليبِ لَياليكِ أَبْيَضَ . . . دُقِّي الْهَواء
كَيْ أَرى شارِعَ النَّايِ أَزْرَقَ . . . دُقِّي الْمَساء
كَيْ أَرى كَيْفَ يَمْرَضُ بَيْني وَبَيْنَكِ هذا الرُّخامُ .

الشَّبابيكُ خالِيَةٌ مِنْ بَساتينِ شالِكِ . في زَمَنٍ
آخَرٍ كُنْتُ أَعْرِفُ عَنْكِ الْكَثيرَ ، وأَقْطُفُ غارْدينيا
مِنْ أَصابِعِكِ الْعَشْرِ . في زَمَنٍ آخَرٍ كانَ لي لُؤْلُؤٌ
حَوْلَ جيدِكِ ، وَاسْمٌ على خاتَمٍ شَعَّ مِنْهُ الظَّلامُ

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ ، طارَ الْحَمامُ

فَوْقَ سَقْفِ السَّماءِ الأخيرَةِ ، طارَ الْحَمامُ وَطار
سَوْفَ يَبْقى كثيرٌ مِنَ الخَمْرِ ، من بَعْدِنا ، في الْجِرار
وَقَليلٌ مِنْ الأرْضِ يكْفي لِكَيْ نَلْتَقي ، وَيَحُلَّ السَّلامُ .

XI

الكَمَنجات

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى الأنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ تَبْكى على زَمَنٍ ضائعٍ لا يَعودْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على وَطَنٍ ضائعٍ قَدْ يَعودْ

الكَمَنجاتُ تُحْرِقُ غَاباتِ ذاكَ الظَّلامِ الْبَعيدِ الْبَعيدْ
الكَمَنجاتُ تُدْمي الْمُدى ، وَتَشُمُّ دَمي في الْوَريدْ .

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى الأنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ خَيْلٌ على وَتَرٍ مِنْ سَرابٍ ، وَماءٍ يَئِنُّ
الكَمَنجاتُ حَقْلٌ مِنَ اللَّيْلَكِ الْمُتَوَحِّشِ يَنْأَى وَيَدْنو

الكَمَنجاتُ وَحْشٌ يُعَذِّبُهُ ظُفْرُ إِمْرأَةٍ مَسَّهُ ، وَابْتَعَدْ
الكَمَنجاتُ جَيْشٌ يُعَمِّرُ مَقْبَرَةً مَنْ رُخامٍ وَمِنَ نَهَوَنْدْ

الكَمَنجاتُ فَوْضى قُلوبٍ تُجَنِّنُها الرِّيحُ في قَدَمِ الرَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ أَسْرابُ طَيْرٍ تَفِرُّ مِنَ الرَّايَةِ النَّاقِصَةْ

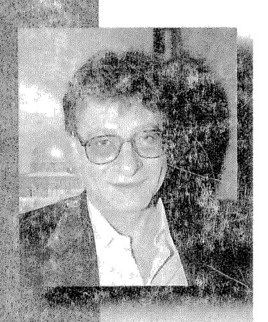
الكَمَنجاتُ شكْوى الْحَريرِ الْمُجَعَّدِ في لَيْلَةِ الْعاشِقَةْ
الكَمَنجاتُ صَوْتُ النَّبيذِ الْبَعيدِ على رَغْبَةٍ سابِقَةْ

الكَمَنجاتُ تَتْبَعُني ، ههُنا وَهناكَ ، لِتَثْأَرَ مِنيُّ
الكَمَنجاتُ تَبْحَثُ عَنّي لِتَقْتُلَني ، أَيْنَما وَجَدَتْني

الكَمَنجاتُ تَبْكي على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي مع الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إِلى الأَنْدَلُسْ

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٨٠١٧
I.S.B.N 977- 01 - 5720 - 1



مكتبة الأسرة

القراءة للجميع

بسعر رمزى مائة وخمسون قرشاً

بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

هذه مجموعة مختارة من قصائد الشاعر الكبير محمود درويش روعى فى انتقائها تمثيل شتى المحاور التى يدور حولها شعره ، وكذلك شتى الاتجاهات الفنية التى يعتبر رائداً لها ، فهو من كبار المجددين فى حركة الشعر العربى المعاصر ، وهو يتميز بالجمع بين ما يسمى بصوت الشاعر الفرد ، وصوت الجماعة أو الصوت الذى يمثل ضمير أمته العربية ، وإذا كان الصوتان يتلازمان فى معظم القصائد ، فإنهما أحياناً ما يصطدمان لتوليد ما يسمى بالحوار الدرامى الداخلى الذى يقرب بين الشعر الذى يعتبر « ذاتياً » أو مفرد الصوت وبين الشعر « الدرامى » ذى الأصوات المتعددة .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب